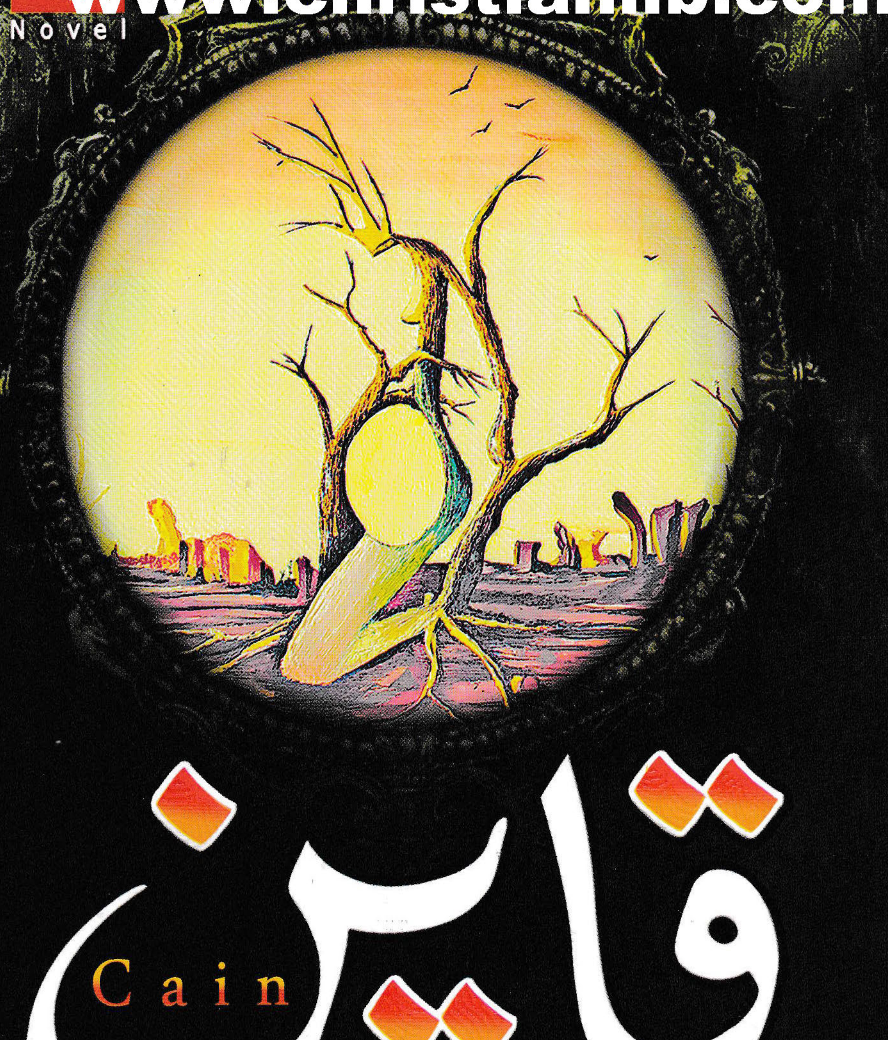
رواية
Novel

ماهر فايز



قاين
Cain

الطبعة 6

الوليد

قابين

اسم الكتاب	قايـــن
تأليف	مـاهر فـايز
المراجعة اللغوية والتدقيق	طه عبدالرءوف سعد
تصميم الغلاف	قسم الجرافيك بدار الوليد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية	2016 / 10986
الترقيم الدولي	978-977-6560-07-9

الطبعة السادسة **2017**

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: 2256870

دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: 2236728

مكتبة النوري - أمام البريد - ت: 2210314

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: 2228222

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: 2456786

- فرع ثاني - ت: 2222373

دار الوليد للدراسات والنشر والترجمة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: 00963/11/2235401 ص.ب 34825

مصر - القاهرة - التجمع الخامس - الحي الأول - بناية 152 - هاتف: 01148745162

لبنان - تليفون: 05 /434186 - 03 /652241 - ص.ب 3043 الشويفات

@ daralwaled@yahoo.com - darelkitab@yahoo.com

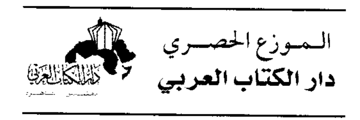


ماهر فايز



تطلب المنشورات من دور النشر والمكتبات التالية

البلد	أسماء المكتبات
مصر	دار الكتاب العربي: 25 شارع عبدالخالق ثروت (القاهرة) - مكتبات الشروق - مكتبات ديوان شركة الشرق للمكتبات - مكتبات مؤسسة الأهرام - مكتبات أخبار اليوم- مكتبة منشأة المعارف (الإسكندرية)- مكتبات دار الفاروق (هايبر 6 أكتوبر) - مكتبات (أ)- مكتبة الكتب خان - مكتبة الخياط (الإسكندرية)- مكتبة دار الحديث (أسوان) - كتابيكو- مكتبات فكرة
ليبيا	طرابلس: المكتبة العلمية - المكتبة العربية - مكتبة السلام - دار الوليد - دار المعرفة - مكتبة 17 فبراير (بنغازي)- دار الجيل (بنغازي) - مكتبة الشعب (مصراته)
تونس	إداريات ومعارف سوسة - شركة كتبكم تونس - المركز التونسي للكتاب - دار المعرفة - مكتبة تونس - دار الجيل - مكتبة الكتاب - سو بيس - مكتبة نومام
الجزائر	مكتبة العزة والكرامة (وهران) - مكتبات العزة والكرامة بالعاصمة الجزائر وسائر فروعها
المغرب	الدار العالمية - دار الإنماء الثقافي - دار الثقافة - دار الأمان - مكتبة الألفية الثالثة- وراقة المبادرة - دار إحياء العلوم الزاهرة - الناشر الأطلسي - وراقة الجنوب - مكتبة فرنسا- مكتبة باريس
السعودية	مكتبات الشواف (الرياض/ الدمام) - مكتبات جرير - مكتبات العبيكان - مكتبات تهامة - مكتبات الرشد - دار الوراق - مكتبة المتنبي (الدمام) - كنوز المعرفة (جدة) - روائع المعرفة (جدة)- المكتبة التراثية
الامارات	مكتبة زين المعاني (دبي) - مكتبات دبي للتوزيع - المكتبة التجارية (العين) - مكتبات جرير- البرج ميديا للنشر والتوزيع (أبو ظبي)
الكويت	مكتبات ذات السلاسل - دار الفكر الحديث - مكتبة العجيري - مكتبة الرسالة - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف- مكتبات جرير - دار آفاق
سلطنة عمان	مسقط: مكتبات جرير - أحمد ناصيف 0096892339307
البحرين	المكتبة الوطنية (المنامة) - مكتبات جرير
العراق	دار الكتب العلمية (بغداد) - دار المدى للعلوم والثقافة (أربيل) - دار التفسير (أربيل) - مكتبة هورمان (أربيل) - مكتبة برايتي (أربيل) - المكتبة القانونية - مكتبة النهضة (بغداد)- مكتبة السنجري (الموصل) - دارالزمان (أدهوك) - مؤسسة المصباح (بغداد)- مكتبة المعرفة (باب المعظم)
الأردن	مكتبة دنديس -دار أسامة -مكتبة الفرسان -دار صفحات -كشك الثقافة العربية حسن أبو علي - دار جملون
فلسطين	مكتبة دنديس (الخليل) - مكتبة القدس (القدس الشريف) - دار العماد للنشر (الخليل) - دار الجندي (القدس)
السودان	مكتبات القاضي (الخرطوم -أم درمان) - مكتبة الدار البيضاء (أم درمان) - وادي النيل للتنمية البشرية (الخرطوم)
لبنان	شركة الشرق الأوسط - النيل والفرات كوم



سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: 2235401 ص.ب 34825
مصر - القاهرة - 52 شارع عبدالخالق ثروت - شقة 11 تليفون: 23916122 - فاكس: 23933671
لبنان - تليفون: 434186 / 05- 652241 / 03 - ص.ب 3043 الشويفات
@ daralwaled@yahoo.com - darelkitab@yahoo.com


انبثاق

في الأصل كان الحوار؛

بلا بدء.

بلا انتهاء..!

ماهر فايز

«ما من يقينية بعينها تحتِّم عليَّ أن أؤكد موتي على نحو ما، ولكنها أعراضُ انسحاب الحياة، إن كان من الجائز إطلاق صفة حياة على كل هذا الاحتضار الذي خَبِرناه سويا مذ أشرقت علينا شمس المعارف على يد يك عزيزتي؛... لاتسحبي يدك من بين يدي».

قال آدم هذا وهو يضم كفي حواء في كلتا يديه، «لاتجفلي من كلمات خزنتها طويلًا في انتظار هذه اللحظة، ربما تشبه قليلًا إخراج ضلعٍ آخر منِّي، ولكن هذه المرَّة- وأنا صاحٍ! - هو غصن لن يفارق بدني؛ لأنه قولي؛ هذا الذي انتظَرَ طويلًا في ظلمة نفسي كجزء لايتجزأ من جذري وأفناني.

كثيرًا ما تَخَيلتَني، ضلعًا.. خرَج من إلوهيم..

وقرر أن يتعاطى الحياة مع غيره، كما فعلت أنت بي، في مشابهة ما».

بكت حواء ومالت بوجهها على وجهه وهي تمسح دموعها بأطراف أصابعها قائلة؛

- «أكثر من تسعمائة عامٍ.. ولم تنسَ؟.. كل الصور ماثلة أمام

عينك لاتفارقك، كل الكلمات ثبتَت في لسانك كجزء لايتجزأ من نطقك، أصبحتُ لا أدري حقًا؛ أهذا السقوط أنهى عليك أم كان الوقود الذي تحرَّكتَ به لنصنع معًا حياة كهذه؟...

أنا لا أنسى كيف اتهمتني، بأنني اختلقت قصة الحية، وبعد أن أكلت معي، قلتَ يومها:

«لماذا لاتكون قد انبثقت من جنبك، في غفوة ثقيلة لكِ، كما حدث معي يوم انبثقتِ منِّي».

أنت تتذكر ما تريد أن لاتنساه.. فقط.

ابتسم آدم وجذب رأس حواء برفق ناحية وجهه، دافنًا جبهته في وجنتها صامتًا؛ وملامح سكوته تصرخ بعدم جدوى اجترار النزيف.!

قطع الصمت هامسًا؛

- «أشعر في احتضانِك لحياتي أنك أمي، الأنثى التي انبثقت من الرجل لتحيط به، رحمٌ، خُلِق ليحتضن ويغذي، ويلفظ، يَقوت ويُميت، ولايَكُف عن منح الظلمة والضيق مع نور الحياةالآتية باتساعها الدائم.

كَم تخرَّبَت نفسي وخَوَت من الرجاء في النور والحياة، ثم تشددت

مرة أخرى بفعل احتضانك، وأنتِ ترفِّي حولي راعيَةً ما تبقى فيَّ، حتى أقوم ثانية...

آه حواء ياسقوطي وقيامي.. ياجنتي الهاوية.. وفردوس احتضاري...

فرعٌ صار لي أصلاً.. وأصلٌ للحياة خارج منّي.. حاملة للدمع والمطر، وكالأرض تحتضن العظام بجوار البذار، وتُخرِج الظاهر من الخفي.

العذاب المقيم بالجنات.. وشجرة الحياةبجوار مُنبِتةالعري. !

- «كم أنت جميل في مرضك آدم، قالت حواء وأضافت؛ والجرح فيك سر البوح، ربما أنت السِفر الذي قرأته باهتمامٍ.. وسأظل، كما تعكُف أنت على قراءة وتفسير العالم السمائي والطيني الذي جئت منه. تنبئني صفحة وجهك اليوم بتجلٍ لم أعهده، وربما تفضي لي بما لم تقله، الآن بعد انصراف بنيك».

حاول بصعوبة أن يعتدل في رقدته، بالشكل الذي يتيح له أن يرى كل وجهها جيدًا أثناء الكلام، لم يستطع -كان الداء ينمو ويستفحل- وَفَّرَت عليه الجهد بأن أتت سريعًا بوسادة عالية وضعتها تحت أعلى ظهره ناحية الحائط الصخري، سَعَل قليلا وهو يرتفع بجسمه ليستند عليها، وافته بجرعة ماء من وعاء فخاري بجوارها، شرب وأطل في

وجهها باحثًا عن شيء ما في عينيها، اعتاد أن يتعامل معه في حوار كالمزمع أن يقام.

علِمَت في نفسها بمبتغاه، تجاوبت مع طلبه بنظرة ينتظرها.

نظر كأنما في مرآة محدقًا، ارتعشت هدُبها قليلًا، فعالجت ذلك بابتسامة من النوع الذي يحيط العين بشجن حاني يصلُها بوعيه، كما أراد، وكما شاءت.. فأخذ التصريح بالكلام.

قال:

- «يومَ جُبِلتُ من الأرض، كنتُ مثلها، قبل التجديد، في رتبة ما من الحياة، في عماء من الوجود، لم أشعر بي، ولا بأحد، هذا قبل أن أتطلع في وجهه لأرى لأول مرةوجهي،

علِمتُ بوجودي أثناء اللقاء، وتنفستُ حين استراحت أنفاسه ساكنة في عمقي، فصرت أَحْيَا؛ هذا النوع من الحياة، لكني.. ومفتقدًا لجنسي في شعور آخر بانعدام وعيٍ خاص بي لايعلمه إلا هو وأنا، انتظرتُ، إلى أن انبثقتِ أنتِ، ومَيَزتُ، فرأيتَني مرة أخرى فيكِ، بجمال آخر غير الذي رأيتَني فيه منه..

وامتد وجودي بك كما كنتُ من قبل امتدادًا لصورته، شابهتُه بشكل ما قديُنقِص من استعلان وجهه، وأيضًا لم يُظهِر وجهي كل ما في وجهه من اكتمال، حتى ظَهَرتِ مِنّي، كشبهِ أرى به مايُكَمِّلني.. بفصلك عني..

بقدرما جمعني هذا لي، بقدرما فرَّقني بين عالمين، عالمه وأنا فيه كُلٌ.. وعالمي وأنتِ فيه كُلّي.! كنت أُتمزق لأوَحِّد بين العالمين فيَّ،

وعندما كنت أَحِنّ لأُصلي الترابي، أجدني في التصاق بك مشيميّ.. وفي حنيني للروحاني لا أجدني إلا مع وجهه.. عذاب جميل، وفي وجعه لذة تشبه تلك التي صاحبت لمستي الأولى لك، وأنا أتحسس موضع الخروج...

في إحدى المرات قلتُ له أشتاق إليك، فسمعتُ كلمته فيَّ، قال:

- «ليس أنت بل أنفاسي فيك تلك التي اغتربت عني ساقطة في بدنك الترابي، هي تشتاق للعودة»..!

هذه الفكرة فسَّرت لي كثير من اشتياقاتِك لي، خاصة تلك التي جَدَّت بعد النفي.»

ابتلع آدم ريقه بصعوبة، فعالجته برشفة ماء أخرى، وتكلَمَتْ، لتعطيه استراحة قصيرة:

- «أغبِّط فيك قدرتك على التأويل، ليتني أعلم سرّ اشتياقي أيضًا للشجرة التي جَعَلَتْني متمردةً على راحتي حتى ابتلَعَتْني يوم أكلتُ منها، وأعطيتُك، فلم تُبقِ على شيءٍ لنا لم تلتهم غطاءه، وكأنها عينٌ لا قاع لها ولا شِبَع، واستقرَّت في حشاي الذي اتسع بدوره وصرخ فيه جوع لا يكف؛ أن ألتهمك، وأُصَيرُك ضلع فيَّ، حقًا إنها كالآكلة التي ترعى في الجزء الملوث من البدن،

فالتَهَمنا بعده كل شيء ولم نَكفّ، حتى أنني شعرت في وقت ما أننا أكلنا في نشوةِ سقوطِنا؛.. الإلهَ نفسَه..!

أتعلم آدم؛ نشوة الجوع هذه تساوي عندي فعل الولادة من رحمي، تمامًا كلذة الكلام عندك، كلاهما التهام وإفراز لاينتهي..!

ضحكِ آدم ورنَّت أصداء ضحكته في الكهف الأسود بعد أن عكستها نتوءاته الشاهدة على حياة لن يجود الزمان بأعرض منها، وقال:

- «هو.. أعطاني اندهاشًا دائمًا للجلال والقوة، وأعطاكِ الفضول لمعرفة التعامل مع جمال الأشياء، خاصةً تلك التي تجعلك ممتدة، ولودة، هذا قرأته في عينيك مرارًا، خاصة عند ذكر أخبار الشجرة وقبل أن ترينها.. لكن، وللحق، لم يفِدني كثيرًا التأمل في جلال الأشياء دون أن أرى جمالها في فضول عينيك الجميلتين.!

بدلال، همَسَت حواء:

- «تصبح أكثر شاعرية في ضعفك ومرضك، عوَّدتَني بذلك أن أحتضن بلذة ما آلمك، لاتضحك... أنا عندي أمومة، حتى للآلام، خبرتُها في التعامل مع كل موجوع...

أتعلم؛ أنا احتضنت هذا في كلماته رغم أنها كانت موجعة لي، وقت أن كَفَّنَني وإياك بقمصانه السميكة.! شعرتُ أنه أيضًا سيحتاج

لأمومة ما تحتضن كلماته المؤلمة والمتألمة، كلما أراد أن يكلمنا ثانية... هل سيفعل ذلك مرة ثانية؟».

- «ضعفي» قالها آدم كأنما يحدث نفسه بها وأردف:

«لم أدرك ضعفي إلا حين رأيتُك قادمة، تحملين في إحدى كفيك الثمرة المحَرَّمَة، شاهدتُ يومها قوتك ربما لأول مرة، في عينيك اللتين استضفن في غيبتي عين أخرى أطَلَّت على روحي منهما، ليزداد إحساسي بضعفي، مصحوبًا بخوف عميق منه ولما أنامقبل عليه دون علم منِي،

لالا..- تدارك آدم-

«كنت أعلم ولكن... لحظتها فقدتُ علمي، أو أنا تنازلت عنه بإرادتي، حين أمسكتُ بك خوفًا من فقد لا أحتمله؛ أو هكذا خُيِّل لي، أن أخسرك فأعود وحيدًا في عماي الذي لا أعرفني فيه، ولا أحد.. ومع إدراكي لسقوطك، أي سقوط نصفي تمامًا؛ أدركت أنه عليَّ- وبنصفٍ حيٍّ- أن أختار بين نزول إرادي إلى هاوية سقوطك، أو أعود لوحدتي مع صورته وحده، دونً أن أًرى جسدًا لي أتحرك وأشعر من خلاله بهذه النوعية من الحياة».

اتسعت عيناها بقوة، وقالت بفم كان مفتوحًا قبل أن تتكلم؛

- «إذن، كان فيك أيضًا رغبة!!، فلماذا وضعتَ بقصدٍ أو بغير قصدٍ حِملَ الرغبةَ كله عليَّ طوال هذه المُدة»؟

قاطعها آدم فورًا:

- «لا... يا حواء هذه لم تكن رغبة، إنما احتياج، مزروع في صميمي كما زُرِعَت فيه الرغبة، بئران لا قعر لهما.!

أمام الرغبةَ وُضِعَت الشجرتان.. فدُفِعتِ عند الحية هناك لامتحانك، وامتُحِنت أنا بالاحتياج أمام حياتين، كلاهما يسدد احتياجاً ما لوجودي، وانعداماً لجوهر آخر فيَّ... واحترتُ، وفي حيرتي توقعت أُن تدركني رحمتُه بنورٍ ما، أو قولٍ... فلم يكن إلا الغياب وصمتٌ كالليل المظلم.. فغبتُ أنا الآخر عني، وصَمَتُّ أمام رغبتك، كما صَمَت هو أمامُ احتياجي.

هذا الصمت الذي كشف لي جانبًا آخر يصرخ بنقصٍ آخر جُبِلتُ عليه، وهو أن أعرف بشكل واضح؛ أين هو؟ في وقت كهذا مصيريّ.. وما هي إرادته في هذا.! ومن هي هذه الحية.. وماذا تريد منا ؟ لم يُعلِمني بكل شيء.! وهذا لا يبرر موقفي الإرادي من أكل الثمرة، فهذا تحديدًا، أُعلِمتُ به جيدًا، وبكلمات واضحة.

حتى أنتِ، اكتشفتُ فيكِ وأنت تتكلمين عما قالت لك الحية لتجعلنا نأكل، أن المخلوق الوحيد الخارج مني، والأقرب لي لا أعلم عنه كل شيء.. - تمهلي.. لاتغضبي-

ولا ماذا يريد.. وأشياء أُخرى لا أتذكرها الآن على وجه الدقة، إنما أتذكر جيدًا كم فَضَحتْ نقصي، وأعلنَت عن حدود لي كنت أظنها متسعةأكثر، وكان أقوى ما في ضعفي وقتها هو؛ القدرة الكاملة على الاختيار، خاصة حين أكد بغيابه أن عليَّ أن أختار بين غيب لا أراه والمطلوب مني أن أحياه، وعيان أرى فيه اكتمالي وموتي.! فاخترتك، وأكلتُ».

قالت له بحنو جميل:

- «لا أخفي عليك أن رهاني على حبك لم يخبُ أو يَخِب أبدًا.. لم أكن أفكر في سواك يوم عدت من عندالشجرة، امتلأت عيناي بك لما هو جميل فيك وشهي.. جاشت في نفسي عاطفة لم أعهدها من قبل، ورغبة شديدة في أن.. تحتضنني. مختلطة بشعور اجتاحني وقتها؛ علمتُ فيما بعد أن هذا هو (الخوف).. لم أدرِ تمامًا ممّاذا؟ أوممّن؟.!

وضع يده فوق يديها، وربَّت عليها برفق.. سَبَحَت عيناها في دمع، صعد من بئر عميقة، كان فقط يحتاج لدلو الاحتضار.. ليملأ ما بين الأجفان.. وتكاثف متشبثًا في مآقيها، في انتظار مدَّ اللحظ منه إليها... ليَخُر كجدولٍ حار، ذاهباً بكل ما فيه من حروف.. لكتابه القديم.

اصطفت الحروف جوار بعضها، مع مثيلاتها في ذاكرته.. وسَرَح

قليلًا ليستجمع صورًا لمشهد صبر طويلًا في انتظارهذا النوع من الدفق الدمعي ليخطو نحو التاريخ...مثلهم..

حكىَ لها:

- «كنت مستلقيًا تحت الشجرة معك، تلك التي اتخذت مكانها في أعلى التل المُطِلّ على الحقل الكبير.. هذا الذي أطلَقتِ عليه (بقعة الحيوانات)..

لا أذكر تمامًا متى نمتُ، أو نمنا.. لكنني غفوت لأصحو -ربما بعدما تركتيني بقليل- على نباح كانوب الوفي ... لكنني لم أستطع مقاومة النعاس وقتها، بعد أن تلَفَّتُ بنصف عينٍ جواري ولم أجدك... رُحتُ في نوم ثقيل.. ذَّكرني بعد أن فِقتُ منه.. بيوم خروجك منِّي.

رأيتني في حلمٍ كالصحو...كنت فيه نائمًا كما تركتِنِي في نفس المكان، وإذ بريح شديدة أتت من شمالي التل.. وضربت الشجرة، تريد أن تقتلعها من جذورها... وأنا- بعدأن صحوت في الحلم- .. أحاول بكل قوتي التشبث بها- لا أعلم خوفًا عليَّ أم عليها- لكن الريحَ دارت والتفت حولنا بسرعة، قطعت الشجرة عند مكان اتصالها بأرض الفردوس، لمحتُ بسرعة الجزء الصغير المتبقي منه

أعلى السطح.. والرياح تطوح بي، لأتدحرج بقوة هابطًا لأسفل التل، دون أي قدرة مني على إيقاف هذا.

أثار فيَ ّالانحدار دوارًا فيه لذة ما.. تزداد كلما تلامست بطني بالأرض.. خاصة في المنطقة المغطاة بالحشائش الكثيفة، ظللت في اندفاعي- أودفعي... حتى انغرس في جنبي فرع من شجرة... نصفه كان مثبتًا في الأرض، بميلٍ.. وطرفه الأعلى حادٌ ومُدَبَّب.. توقف دوراني، وكل ما يدور حولي.. في شعورلا يوصف بجمال الانعدام لكل شيء.. وكأن الحياة.. تجمدت.

أفقتُ على صوتك: «آدم أين أنت؟»

فانفتحت عيناي على وجهٍ لك، آخر غير الذي ألفته معك، عزوت هذا لحالتي، إنما تحققت بعد ذلك من نظرات عينيك اللتين لم أعهدها من قبل.. ل .. جسدي..

كنتِ تحملين في يمناك (الثمرة).. وحكاية غريبة عن الحية والحوار والنتيجة... نعم... النتيجة تلك التي حسمت الأمرلي، فبِتُ لا أجد منفذًا يحفظك لي غير التعدي على الحد الذي قرره هو لبقائنا في الحياة..

فكرتُ وقتها أن أرفض الأكل، وأعود إليه.. وحيدًا ليقرر هو

كيف أستكمل حياتي كما يريد... ونازعتني في هذا فكرة أخرى، ألا أتركك في موتك وحدك..

«الحب وحده أهبطني لك حيث أوصلك خطؤك.

رضيت بتحرك ينشئه الحب، عن آخر تفرضه الوصية.. وكان في هذا موتي..

أكلت بإرادتي، لا مفاضلة بين الشجرتين فقط..

ولا بينك وبينه.. حاشا..

ولكن بين الحب... والوصية...

وغلب الأول.. وبغلبته سقطتُ متحدًا بسقطتك..

وأنا في...كامل حبي».

ساد صمتٌ ثقيل كالخرس،

استحضر كل مشاعر الحيرة والضبابية وقت دخولهما معا هذا النفق المنحدر بقسوة، ناحية هوة لا قرارها، تصَلَّبت يداهما الباردتين معًا ربما لتجاوب مؤقت حدث في الشرايين حين استدعاء تداعيات انسحاب أنفاس الشكينة من سكنها فيهما، وتوقف مضخة الحياة الإلهية عن العمل في جسديهما على النحو المرجو..!

لم يقطع الصمت إلا وقع خطوات كان يعلمها آدم جيدًا أكثر من حواء، بقدر مااستأنس بها وحشة العدم، والآن يأنس بها في غربة نفي المنفِيّ، وسقوطه الثاني من موت لموت؛ على نفس الإيقاع...

وقَعَت حواء على الجسد البارد في إحساس جديد بموت آخر عليها أن تواجهه.





الظل و المنفى

أنا.. لا أحد!
وأنت، من تكون؟
هل أنت أيضًا،
لاأحد .. وإذًا..
فثمة اثنان منا،
إياك أن تخبر أحدا!
وإلا..
ألقوا بنا في المنفى!

(إيميلي ديكينسون)

سقَطَتْ على الأرض بجوار آدم، على ركبتيها تتفحص وجهه، مرَّت بيديها وكل ما فيها على كل جزء في بدنه، انهالت الأفكار برأسها، وتوالت كأنها مطرقة تختار متعمدة مناطق الوجع، توقظها ثم تضربها مطوحة بها إلى حائط الفراغ.

نظرت إليه كما كان يحب أن يُرى؛ كشجرة.. لكنها الآن تعود بفرعها للتراب منحنية ناحية أصلها، هل سيتحول الفرع ثانية لجذر؟ سألت في نفسها وهي تمرر أصابعها على قدميه. قامت بصعوبة وأحضرت قميصه القديم المصنوع من الجلد، وغطته به، وهي تستحضر في مخيلتها ما تم وقتها من أحداث وحديث، متسائلة؛ هل سيأتي الرب ثانية لدفنه؟ خطر ببالها أن يكون قد زاره بالأمس، ولم يُرد آدم أن يقول لها.. بدافع الفضول تسائلت؛ أيكون قد أفضى له بسرٍ هي لاتعلمه، ولم يُرد أن يخبرها به، لذلك لم يكلمها عن اللقاء.؟

اصطدمت يدها بشيء ما صلب وراء ذراعه وهي تسحبها ببطء لتضعها على صدره بجوار الأخرى- كما كان يحب أن يستلقي- تناولته ورفعته في مقابل الضوء لترى، حجرًا... تذكَّرَت أنه الحجر التي قُتِل

بها ابنها، هكذا قالت: «ابنها» لأنها تعودت أن تذكر الموضوع هكذا، فقد مات كلاهما بنفس الأداة...

نظرت لعيني آدم المغمضتين وسألته وهي تعلم أنه لن يجيب: هل احتفظت بالحجر لأنك أحببت قاين؟

تحركَت شجونها على ثلاثتهم، لم تستدعِ دموعها، فقد كانت حاضرة كنبع في حشى عينيها... نزَلَت ساخنة على وجنتيها.. بينما شعرت ببرودة بدأت تدبُ في بدن آدم... برُدَ المكان أيضًا وشَحُبَ، وبدنها اعترته رعشة.. هل هذا لحضور الموت في آدم، أم لسبب آخر.. لم تميزه.

هَمَّت بأن تصرخ لتنادي الجميع من الكهوف المجاورة، لتخبرهم بموت الكبير، التفتت عند الباب، فرأت شابًا واقفًا ينظر قبالتها، لم تتعرف عليه، سألته الدخول، تحرك بهدوء وقور يليق بآدم المسجى على مرقد ه في طزاجة الموت، الذي سيظل يانعًا إلى آخر ميت ذابل في البشر.

- من أنتَ؟ سألته بصوت متهدج وهي تحاول التحرك نحوه بصعوبة.

- أنا رسولها.[1] علِمَت من هي التي يقصد... راحت بعينها نحو الباب وعادت بها له سائلة؛

- هل أنت ابنها؟

- أناحاملٌ لكلمتها، هي لاتؤمن بالبنوة...تعتبرك واحدة من صفياتها!

- لماذا لم تأتِ هي؟

- هي تتبادل الظهور والغياب معه، فيما يخصكم، وهوقادم مع موكبه قبل الغروب لدفن آدم.

- إذن لماذا أرسلتك؟

---

1) راعينا فكرة أن الشيطان بنفسه لا يتعامل مع الإنسان مباشرة، فهذه لم تطرحها النصوص المقدسة. في اليهودية مثلًا، من خلال الحيَّة في جنة عدن، وفي سفر زكريا كان التعامل مع الرب كما في سفر أيوب، فلا ظهور بصفة شخصية لإنسان. وفي الإسلام أيضًا بأفعال المكر والوسوسة، وفي المسيحية لا يُذكر له ظهور مباشر إلا وقت تجربة المسيح في البرية. ورواية يهوذا عن صراع الشيطان على جسد موسى، وهذا كان مع رئيس الملائكة ميخائيل، والذي لم يتعامل معه مباشرة بل قال: «لينتهرك الرب». باعتبار أن رتبة الكاروبيم التي منها الشيطان هي أعلى من رتبة الملائكة.

أما في أعمال الفن والأدب فقد تم تجسيده في حوارات عدة كما في (نهاية الشيطان) ل فيكتور هوجو، و (فاوست) ل جوته، وفي الفردوسين المفقود والمردود ل ملتن، وكله من وحي خيال المبدعين>.

- لأحمل لك أسفها العميق، وبأنها أول من تشاركك حزنك سيدتي، اعتبري هذا وعد منها... أن تَحضُرُ أحزانك كلها!

- «وعد» !، أي وعد آخر ينتظرنا، بعد نزولنا وانحدارنا لهذا المنفى؟

قل لها أن وعدها لم يتحقق!

- كل الآلهة- وأنتم بالمثل- تنزل أو تنحدر، لا لشيء خارجها، بل لماهي عليه، وكلما ارتقت، كان نزولها اختياري وانحدارها أكثر ضررًا وخيرية!. الحيّة تُحرِك هذا لتوفر مشقة البحث عن طريقةٍ؛ خاصة لمن لايريد أن يسوِّد صفحته، وهي في تخصصها هذا.. مبدعة.

- الحية، ساقطة مثلنا، وقبلنا.. هكذا قيل لي.

- وما المشكلة في هذا!؟ سبق أن قلتُ لكِ؛ الكل ينزل أو يسقط، وفي الجميع؛ تتنازع أيضًا الرغبة في الصعود.. الديمومة كلها تتوقف على تقييم نقطتي البدء والمنتهى. الحية أظهرت سبق النزول، والكل بعدها إمّا مقلداً أو بتأثير نزولها، وأعتقد أنك من النوع الثاني.

- هي أسقطتنا..!

- «هي..»! ضحك بسخرية وهو يعيدها بعد حواء، دار دورة حولها، وتوقف مقابل وجهها، نظر في عينها، أشار بسبابته لقلبها: لا هي ولا الرب نفسه، يفتحان ما أغلقتِه، أو يحركان ما ثبَّتَّه.

كل الكون متحرك، وكل متحرك في إغواء إلى أن يثبت في مركز الدائرة أو يموت... الحية عند كل نقطة في محيط الدائرة، تعكس بمرآتها ما في مرايا نفوسكم، بوابات تُفتَح وتُرمن الداخل. هي تطرِق.. وتنتظر؛ مثل الرب سيدتي.

- لا أفهم كل ما قلته، ولكني أعلم أن غيابه دفعنا لهذا السقوط بشكل غير مباشر.

- لا سيدتي، هو نبيل وخُلُقه لاتسمح بذلك.. أنتِ غيَّبتِه مرةً عند ذهابك للشجرة- كَمْ حَلِمتِ بها! – كما غَيَبّتِ رأسك، وفي حوارك مع مولاتي، غيَّبتي السيد ثانية، ووضعتِ كلماته في الرتبة الثانية من الكلمات..! هي لاحَظَت ذلك وأصعدتْ مذكرة بذلك له، فور أن فعلتِ... هي حارسة الغياب.!

- لا بل قل هي حارسة التمرد.. كنتُ مستقرة وراضية إلى أن ظهرت في حياتنا .

- اسمحي لي سيدتي.. أي استقرار هذا.؟

استقرارك مع زوجك؛ هذا الذي تركتِه وجئت إلينا بمفردك!؟

ولو حياتك مستقرة لماذا رغبت في حياة الآلهة.؟

هل استقرت فِيكِ معرفة ترضين عنها؟ لو كان؛ لماذا طلبت أن تكوني مثلهم عارفة بالخير والشر؟ ولا أعتقد أنك تدَّعِين الآن استقرارك له و لأفكاره، ولا وقتها، وإلا لما استراحت نفسك لسؤالها عن حق كلماته، بل واستجبت للتشكيك في اختياراته لكم..!

لاحظتُ إشارتك لعدم تحقيق وعدها في بداية حديثنا – وكأنها كاذبة– فسَكَتُّ حتى نصل بالحديث إلى هنا لأسألك:

هل عندما قالت لك: «تكونان كالله عارفين الخير والشر»[1] كذَبَت!؟ ألم يقل الرب نفسه بعدها عنكما «الإنسان صار كواحد منَّا عارفًا الخير والشر»!؟ [2]

ألم يتم ما قالته!؟ ما ذنبها إن لم يرُق ما حدث للرب؟..

قاطعته حواء قائلة:

– لم يكن هذا هو فقط ما وعَدَت به، إنما قالت: «لن تموتا».

– أراك تُكَذِّبينَها مرة ثانية سيدتي، فليكن، هي اعتادت على ذلك وتترفع عن الالتفات إليه. أولًا كيف تكوني ميتة وأنت

1- سفر التكوين 3/ 5.

2- المرجع السابق 3: 22.

تتحدثين لي الآن؟ ثم، ما هو مفهوم الموت لديك؟ عن أي موت تتحدثين، وعن أي موت هي كانت تتحدث؟ أنت لم تحددي أو تصنفي حياتك بعد، فكيف الحال بموتك؟.. أتوقع أنك تديرين في رأسك الآن مقولات آدم عن الانفصال.. وأسألك:

أي انفصال عن إله هو نفسه غاب عنك في مشهد احتياج لكما قبل أن نلتقي؟

ثم قولي لي في أي وقت كان متصلًا؟

أنت نفسك لم ترينه ولا مرة قبل موضوع القمصان... دعيني أقول لك حقيقة:

«هو لايظهر إلا عندما تتعرون تمامًا»

بل دعيني أفضي لك بسرٍ؛

«هو غير منفصل، فقط.. عن أناه...

متصل فقط بماهيته،

وكل الوجود مرآة له،

متصل بأي موجود في حالة واحدة؛

أن يرى فيه وجهًا من وجوهه،

فيتعرَّف على نفسه من زاوية كل وجه في تفاعلاته مع باقي الأوجه.

ألا يسكن فيكِ هذا الفكر عينه، وفي آدم قبلك.. ألم يتعرف على نفسه فيكِ.. وأنتَ..

ألم تتعرفي في مولاتي وفي الشجرة على وجه ما من وجوهكِ...

وفيكِ منها الكثير؛

أنتم مجرد أشباه يُحرِكها الشَبَه... ووجوه لا نهاية لها لل(هو).

- و(هي).. ألا تَرَ فينا وجوهًا لنفسها أيضًا؟ قالت حواء هذا وهي تسأل نفسها: «لماذا أبحث عن إضاءات في هذا الوجه الشاحب» !

قال لها:

«(هي) ترسم حدود الإضاءة بالظل،

بدونها لاملامح لوجهيكما،

هي صِبا وشيخوخة الوجوه التي خرجت من أناها لتَعرِف وتُعْرَف، هي محبَرَة القسمات، بموادها الساكنة في كل ما لايقع عليه النور ولا يخرج منه في الوجه، كل التفاصيل الكائنة في الوجه، تذوب في النور، وتتجلى مع الظلال..

فلا النور يصنع الوجه وحده ولا الظلمة تخلق ظلًا بمفردها، إنما خالق الجميع واحد، وكلٌ في مكانه من النور يتحدَّد ويُحدِّد فيما يُرى من المرآة ليس إلا..!»

قالت حواء:

- «يا لتفاصيل السواد التي غمرتنا بحضورها.. وجعلتنا نتمتع معها بشيخوخة مبكرة لكثرة إظهار التفاصيل، آه.. من يعيد لي وجه الطفل، وبراءة غياب القسمات، من حَرَّكَ الأيام بهذه السرعة ناحية الموت؟ ولماذا؟ أصبحنا نعُد الأيام رجوعًا للحظة الموت، وذهابًا بها لموت آخر، وصرنا نؤرخ لها انطلاقًا من سقوطنا في محبرتها، وظلالها الباردة...؟

أين من عيني شمس الفردوس، وألوانها.. غابت في حضور السواد، أتُرانا ارتدينا المحبرة أم هي ارتدتنا؟.. تاجرة الظلال هي.. منحتني ظلالا في وجهي، حين بِعتُها ظلي، فتعرَّيتُ، وغاب وجهي في كثرة القسمات.. فشِختُ..!

آه.. ماذا رأى فيّ زوجي حين عُدتُ من عند الشجرة؟ ليتني سألته..!

بل كيف رآني وأنا بلاظِل بعد أن بِعتُها ظلّي؟

ربما رآها هي... أو رأى الشجرة مرة أخرى... أي شيء غيري.!

كيف هي الروح بلا ظلٍ؟ ليتني صَمَتُّ.. أم أن الصمتُ هو ظلال صوت؟

وكيف وأنا بلا ظلٍ يُسمَع صمتي..؟

انهارت حواء وهي تفضُّ روحها مع كلماتها، نزلت على الأرض ووجهها بين كفيّها، في تشنجات مكتومة، وآهات جمعت فيها كل وجع آدم.. وأبنائه، ما زالت تقوم بدور الرحم.. وتتمخض.!

صفَّق الزائر لها صفقات مكتومة بطريقة مسرحية، وهو ينحني أمام حواء؛ «تهنئتي لك سيدتي ولأبناء جلدتك، فقد فَتَحتِ لهم بوابةالتاريخ، بغض النظر عن نوعية الأحداث التي آلمتكم في بداياته، لكن المؤكد أنكم سقطتم لهذا الدهر المجيد، إن استطاعت عيناك أن ترى فيه المجد، كما نراه نحن.»

كانت هذه الكلمات هي آخر ماسمعته حواء، قبل أن تذهب في غيبة عميقة كأنما أُهبِطَت إلى جُبٍ سحيق.



السَفَر

جميعنا سجناء ولكن
بعضنا في سجون ذات نوافذ
وبعضنا في سجون بدون نوافذ

آرثر رامبو

خيم الخريف على ساعات الذروة في يوم ربيعي، انفصل عن فصله، كما أطلَّت هذه الساعة بوجهها عبر جدار الزمن... وعن عيون من آثروا متابعة الفصول، حين تتعرى أو تستتر كالحياة ..

صوت «كانوب» يعوي على باب الكهف، عواء متقطعاً كأن أحدهم يجز عنقه..

رائحة الزهور المتفتحة عند الباب، ملأت المكان بعبير أثيري، وكأن الأرض ترسل آخر هداياها لبكرها الأول، في وداع تشوبه رائحة استقبال خفيّ..

حيث اجتمعت لآدم في تلك اللحظة، كل المشاعر الطيبة بجوار الشريرة.. في انسجام تام، تابعتها كموجة أخرى تتكسر على شاطئ الأبد، أحاسيس الخوف والرجاء... أخذتاه لماضٍ، ظن أنه دُفِن...

استقرت نفسه في قاع التآلفات، أسفل كل الأحداث.. ليجد الرحمة كالعدل، فيبتسم لكليهما فيرضى.. وعينا الخير والشر تطلان عليه.. يزداد تعجبهما حين يرمقهما بنظرة إعجاب بكليهما!، معبأة بمرارة السنين، ولوم الدهور.

ارتداه حب وادع لكل الأشياء، وكأن الذاكرة تغتسل من أدرانها.. وسكنت في حلقه غصة شجنية.. حين عبَر أمامه وجها قايِن وهابِل...

مع كل الوجوه القبيحة والأخرى الجميلة.. في عناق حار لعين تتهاوى أجفانها منسدلة كستائر منهكه.. وكحُجُبٍ تقاوم التمزيق، بينما العينان سحبتا داخلها كسلحفاة خجلة أمام عبث طفل فضولي.

وقع خطوات الموت، هذا الذي رأى ظله وقت هابِل.. برودة حضوره الثقيل غَشَّت المكان، طاردة كل ما سكن للزهرات فيه... خيَّم سواد كثيف، تمهيدًا لفك أوتاد الخيمة العتيقة من الأرض.

سجد آدم على رأس عصاه، قائلًا:

- «تعبت يا أبي في غربتي الردية، ولم أجد راحة لروحي فيها بعيدًا عنك... هل آن الأوان... هل من نهاية لوجعي؟... هل تعود يداك اللتان كونتاني وسترتاني.. لتحتضناني..؟»..

قال هذا وبكى... طويلًا حتى امتلأت عيناه بنيران صافية، ودمع يغلي كمياه نبع غائر.

خُيِّل له أن أصابع حواء الحانية امتدت لتمسح دموعه، كما اعتاد، فتح عينه ليجدها في نوم عميق... غابت الأصابع... ووجد رجلًا واقفًا قبالته، ممسكًا في يده بأداة مثل تلك التي كان يستعملها في

الحصاد... نظر في عينه، وأراد أن يسأله من أنت... لكنه صمت حين رأى دموعًا فاضت من عينيه.. وهو ينحني عليه قائلًا:

- «هل سيدي مستعد للرحيل؟»

عَلِم آدم بالأمر.. فقال له:

- «غبتَ كثيرًا..»!

قال الرجل:

- «لا يُقطَف الثمر قبل أوانه»

قال له آدم:

- «الشجرة ماتت يوم نُقِلَت».

أجابه الرجل:

- «قد لا تعود الأشجار للوراء.. ولكنها ترحل ثانية نحو الأرض بشكل آخر..».

سكت قليلًا ثم أضاف:

- «بقيَ الكثير من الشجرة هناك.. حتى بعد أن نُقِلَت... أمامك ترحال آخر حتى تلتقي بأصولك».

قال آدم بصوت أسيف وهو يشعر بصقيع يغشي قدميه:

- «كنت أظنها الرحلة الأخيرة».

أجاب الرجل:

«هي فعلا الأخيرة من هذه الدورة».

شعر آدم بأن رجلاه فقدتا من إحساسه فقال:

- «ماهو الموت»؟

نظر إليه قليلًا، في صمتٍ ثم قال:

- «هذا يتوقف دائمًا على مفهوم الحياة لديك».

سأله آدم:

- «هل سأكمل الترحال معك.؟

أجابه الرجل:

- «إلى أي مدى يمكنك أن ترحل مع نفسك؟... ستجدني دائمًا عند نفاذ أنفاسك».

كان آدم يضُم كفيه فوق بعضهما، مقاومًا لذة شديدة الألم، لها وقع شبه الإغماءة على نفسه.. أو كأنه في حلم.. لا يريد الاستيقاظ منه.

مالت الشمس ناحية الغروب، خارج الكهف.. نظرها آدم وكأنه

يودعها.. ثم ألقى نظرة أخيرة على حواء، مال عليها بحنو بالغ، طبع قبلة حارة ومعها الكثير من الدمع على رأسها...همس في أذنها وهي نائمة:

- «لا تتأخري عنِّي..».

قال هذا وأطلق عينه في الشمس الذهبية، حيث خُيِّل له وجه المحبوب- آمن بأنه هو، بغير دليل- يبكي هو الآخر... ويداه ممتدتان إليه... اجتازت الرجل الواقف.. ليحتضن آدم... شعر بدفء يغمره.

ثم بدأت حواسه تتعطل.. حيث نظر فرآها تنساب في يد الرجل الواقف، وباقيه ينسلخ بهدوء منه...

لم يأبه فقد كان يرى بما يكفيه ليميل رأسه ويسندها على ذراع المحب اليسرى، تجاوبًا مع تطويق اليمنى لرأسه من أعلى... نام بهدوء واطمئنان في الحضن...مبتسمًا كطفل.

«انتهت حياته.. كطفل.. هذا الذي بدأها... كهلًا»!

دخل ميكائل ومعه أريئل يحملان ثلاثة ثياب من كتان نقي ناصع البياض... وضعاهما ملفوفة بجوار آدم.. واتسع الكهف خلفه ممتلئًا

من جوقات لاحصر لعددها ترتل تقديسًا لله الحي الذي لايموت.. ملك الدهور الذي لايفنى.. رب الجلال والعزة.. الجالس على عرش مجده.. له الكرامة والعظمة والجبروت إلى أبد الآبدين..

مد ميكائل يده من عند الرأس، وأريئل من عند قدميه.. وحملاه طائرين به إلى بحيرة أكيروسا في الفردوس.. حيث غسلاه معه على نغمات تراتيل كونية، أتت من كل النواحي، مُحَمَّلة بروائح طيبة.

عادا به محمولًا ومغطى بأزاهير فردوسية، إلى الكهف حيث سُمِح لشيث بالدخول... وضعا الجسد على صخرة كبيرة وسط الكهف.. ثم صبَّا عليه زيتًا نقيًّا لشجرة زيتون عطرة بذرتها من الفردوس، كان آدم يحتفظ بزيتها لأغراض العبادة والتطبيب، كان ميكائل يشرح لشيث أن يفعل ذلك مع موتاهم فيما بعد، وعلمه كل أصول تتطيب الجسد بحنوط القرفة وقصب الزريرة والزعفران وطيب الناردين..

ثم كفناه بالكتان الأبيض ثلاثًا...والكل يردد التقديس للخالق الحي إلى أبد الآبدين.. ثم حملاه معًا على أكتافهما... جاء كروبان ليظللاه بأجنحتهما.. بينما جاء السيرافيم حاملين معهم مجامر بخور، مليئة بجمرات مقدسة، أحاطوا موكب التجنيز.. بعد أن انحنت طغمة من الكاروبيم تحت الجسد لتحمله في رحلته الأخيرة... مشى

شيث متقدمًا العائلة.. ومشت بعده حواء.. ثم الباقون من خلفهم.. حتى منصة القرابين في أعلى التلة المقدسة، حيث كان آدم وهابِل يرفعان تقدماتهما.. ومن بعدهما شيث... وضعاه بمهابة شديدة على المنصة.. وانحنى الجميع في صمت.





أغنية الغروب

وقال لي:

«كما تدخلُ إليَّ في الصلاة..

تدخل إليَّ في قبرك.»

النفري

اسودت الشمس والقمر صار يعوي.. والكواكب ينتحبن، وهبت رياح عاصفة من جهة الشمال، سمع الكل صوت بوق عظيم.. أرعدت السماء ولم تمطر... ثم عادصوت البوق بإصدار آخر.. فتزلزت الأرض وتشققت كأنما تستعد لحدث جلَلْ، بينما ارتعدت الجبال، ومالت الأشجار والنباتات ناحية جسد آدم، الذي وُضِع على صخرة القرابين وسط عائلته، وقعت عليهم جميعًا رعبة مظلمة، راحوا بعدها في سبات عميق..لـم يبق غير شيث محتضناً جسد أبيه في نواحٍ مُرّ.. وقف ميكائل عند الرأس، وأريئِل عند قدمي آدم..

جائت كل الكائنات العليا، برؤوس عشائرها وأجنادها، كلٌّ واقف في موقعه حسب رتبته ومقامه، منخفضي الأجنحة والرؤوس في صمت رهيب..

وجاء أيضًا في وسطهم، الكائن ذو الهامة الشعراء، والذي وقف رافعًا رأسه.. متلفتًا حوله يقرأ مايحدث بعين صماء. وقف عن يمينه

إزرائل[1] بوجه لا تعبير فيه.

وقف جبرائل على مقربة منه، التقت أعينهما أكثر من مرةٍ، في أحداث بعينها، كأنما أنهضت فيهما ذاكرة ما لحدث مضى.

اصطف حاملو الرايات.. وأمامهم حاملو الأبواق في منظر مهيب.. ومن خلفهم جوقات حاملة لمباخر

واجتمعت الحيوانات وهبط الطيرُ، وكل ما في البحر جاء مع المد، وثبت عند الشطآن في اتجاه آدم.. كأجناسها- كيوم اجتماعها الأول لآدم، حين دعاها بأسمائها – واصطفَّت في مشهد أسيف، محيطة من بعيد بدائرة وجود الجسد المُكَفَّن...

مع ارتفاع قوة الاصوات الآتية من أعلى، بأبواقها، امتلأت البقعة بسحابة عظيمة، وهبطت مركبة هائلة محاطة بدخان كثيف، وفي وسطها كتلة نارية وضاءة مبرقة، وصاحب هذا صوت هائل كصوت جمهور كثير، ومياه هادرة، كأنما اجتمعت الشلالات كلها في هذا المكان.

أكَّد ذو الهامة لنفسه، أنه نفس المشهد الذي حدث في اليوم المشؤوم الذي نودي فيه بصوت ميكائل أن: اسجدوا لصورة إلوهيم

1- ملك الموت في التراث العبري وينطق بالعربية (عزرائيل).

الداخل إلى العالم، بعد ارتفاع المركبة عن الأرض وظهور آدم من تحتها، ظن جميع الملائكة أنه الرب، ولكني علمتُ في نفسي حينها، أن هذا الكائن نتج عن امتزاج بين المركبة والأدَمَة الترابية التي هبطت عليها.. فاحترت بُرهَة، وحسمت الأمر فورًا بألا سجودَ لصورةٍ بأي حال، فإلوهيم لايُرى ولاشبه له ولاصورة.[1]

اختاروا كلهم السجود حتى بعد أن تأكدوا من أنه آدم، امتثالًا لنداء ميكائل، الذي سجد معهم، وبقيت أنا وحدي قائمًا... بعدأن قلت لميكائل، للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد... فقال لي وقتها: «سقطت من العبودية لأنك لم تطع أمر الله».. وكان ما كان ينبغي له أن يكون.

قال لنفسه:

- هل ستضع هذه المركبة آدمًا جديدًا..أم ستأخذ القديم فقط؟

1- وردت القصة هكذا في أبيجرافيا العهد القديم، قصة حياة آدم وحواء، ترجمة سالم الطرزي، من الأصحاح 13 وحتى 16.

كما دونَت في التقليد اليهودي، في المدراش و المشناه لشرح الآية 43 من تثنية 30 .. حيث وردت في السبعينية على آدم: «ايتها السماء ابتهجي مع الرب وليسجد له أبناء الله» وهذه اقتبسها في العهد الجديد من السبعينية كاتب الرسالة للعبرانيين: «وأيضا متى أُدخِل البكر إلى العالم يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله»..آخذا ما ذُكِر عن آدم في التوراة ناسبًا إياه للمسيا ابن الله والبشر.

برجاء الرجوع ايضا ل هذا المصدر: http://www.jewishencyclopedia.com/articles/759-adam-book-of

في الموسوعة اليهودية.

وقال أيضًا:

«ماذا لو وضَعت بدلًا منه آدمًا جديدًا ونودي َفينا ثانية بالسجود.. هل أتوب عن فعلتي الماضية .. وأسجد..؟!!

وماذا لوكان كل هذا الموضوع امتحانًا لي في عبادتي وعبودتي لله وحده، ثم يعاقب بعدها كل ملائكته ويكافئني.. بأن يجعلني أنا أمتحنهم في عبادتهم ومحبتهم له.. كثمرة لفوزي هذا..!؟

ابتسم خلسة في داخله مرددًا في نشوة:

- «أنا الوحيد الباقي حتى الآن على عهدي الأول معه... وهو يعلم مكانته من قلبي... ربما أملك قريبًا... دعنا نتابع ما يحدث».

استقرت المركبة فوق منصة القرابين محتضنة إياه في باطنها، غطت السحابة كل ما حولها في محيط دائرة كل الكائنات المسبحة والساجدة..

استُعلِن الحب في تلك اللحظات لكثيرين، دون إدراك كامل، من الكل، لما يحدث داخل السحابة، وباطن المركبة، وعلى المنصة..عند آدم تحديدًا.

باقات من التعبيرات المنغمة كسلاسل متموجة في انتظام يحمل على الدهشة والذهول... ترتفع وتنخفض درجاتها كأنما بإشارة من شخص واحد.

قال ذو الهامة في نفسه: «اليوم ماتت الألوهة في نظري بعد أن تمرغت بهذا الشكل مع تراب الفانين»

ثم همس لملك الموت، متسائلًا في لهجة ساخرة:

- «إن ما نراه الآن هو الحكمة العليا للألوهة، أن ترتبط بالطين للدرجة التي تنزل فيها الشكيناه ومظلة الربوبية، لخيمة ترابية نتنة، أُفْرِغت من محتواها على يدك..!»

رد إزرائل باقتضاب يستدعيه الموقف: «دعنا نقر حقيقة أننا نجهل هذا الجنس، ولا أعتقد أنهم سيعلمون شيئا جديرًا بالحق الذي يربطهم به، قبل أن أموت أنا..»

قال ذو الهامة:

- «سأرتاح إذا علمتُ سببًا واحدًا، يبرر محبته لهم»

رد إزرائل على نفس النغمة:

- «وهل أدركت سببًا كافيًا، لبغضته لهم، حتى إنه يسلمهم لنا بهذا الشكل»..

قال ذو الهامة في شبه تحسر:

- «لا تفرح كثيرًا.. هو لم ولن يسلّمنا منهم إلا الموتى... فالأحياء له.. وإن بقوا لنا فهم مجرد ضيوف.. كما قصد...

لم يكمل ذو الهامة كلمته، فقد سكن الكل فجأة، لاستقرار المركبة فوق المنصة..

نُكِّسَت الرايات عند انخفاض الصوت الآتي من المركبة.. وأنزَلَت الملائكة أجنحتها لأسفل وهي تضمها لجانبها في إجلال وإكبار للحضور الإلهي.. والإنساني المُرفَع.

التقى الأبد بالزمن، على جسد آدم، فبدا الموت فاقدًا لزهوته..

مُشَرَّعة شرفات الفلاح الذاهب ببذاره لشتاء مجهول.

عادت اللؤلؤة في حدقة الخاتم.. لتندفن في الصمت، ساكنة الضياء.

رقد الشجر معه باكيًا.. لم يرَه أحد.. فقد غابت العين حين غاب..

كان الملائكة يحفرون في الأرض.. حفرتين

واحدة لآدم.. والأخرى لهابِل.

فقد قالت الأرض لقايِن ساعتها: سأتركه شاهدًا عليك..!

سأتركه شاهدًا عليك..! ورفضت أن تقبل جسده.

وقالت لآدم:

أنت بكري الجميل، سأقبله بعد أن أقبلك أنت أولًا لترتاح أحشائي يا ولدي.

وقالت لآدم وهي تترنح من سكرة دماء هابِل:

بارٌ هو وطاهر.. لا أستطيع أن أقبله.. لكنني أغتسل منتشية في دمائه، علِّي أطهر بها من خطوات أخيه..

ثم طفقت تصب لعناتها على قايِن.. وفمها ممتلئ بدماء أخيه.. كانت تبكي يومها على كل أبنائها وتنتحب كثكلى.

- «بالرغم من خوفي من الموت، وعدم فهمي له، إلا أنني أشعر الآن بقوة طاغية فيَّ لرفضه «قالت حواء هذا لشيث، وهي تمسح بيدها على خديها من دموعٍ أفسحت قليلًا لابتسامة ظفر ما، أرادت حواء أن تودع بها آدم عند القبر.

قال شيث:

- «ما يحيرني هو أن يُحاط الميت بكل هذه الحياة.. ويظل ميتًا»..

قالت حواء:

- «من قال لك أنه ميت تمامًا.!؟ ألا تراني ماثلة أمامك وأنا ضلع منه... وأعلم أنني سأموت بعد أيام.. وأنت قطعة منِّي... وابنة أنوش ستلد لك حفيدًا اليوم... ياشيث ولدي الحكيم: «نحن أتقنَّا الموت بكل ما فينا من حياة!.. هل سيأتي وقت نتقن فيه الحياة بكل مافينا من موتٍ»؟

قالت هذا واستدركت:

«لاتنس أن تأتِي بحفيدك بعد أسبوع هنا لقبر جده... ليعرف الموت، أننا باقون».

قالت حواء الجملة الأخيرة وهي مختنقة بعبرات انفجرت مع إتمامها، وراحت حواء بعدها، تنتحب... كل الموتى.!

وكانت الأرض تحتضنه، وهي تنزف دماءها الخضراء..!

صعدت المركبة ببطء، وكأنها لاتريد أن تغادر..

انحنى الكل..

عدا ذو الهامة الشعراء..

ظللت السحابة الجميع... أمطرت السماء دمعها..

انتشر أريج جديد للجسد المسجى على المنصة..

أشار ميكائل لأريئل... ليرفعا الجسد.. ويد شيث من تحته..

أنزلاه القبر.. ليُوارى الثرى في حشد من نظرات الوداع الدامعة في رجاء..

وقف شيث ورفع يديه وأغمض عينيه وقال مبتهلًا:

- «اقبَل ثانية ما أودعته بيننا لوقتٍ.. وليرتح عندك في المكان الذي تاق له كثيرًا».

سمعه ذو الهامة وهو يقول هذا فقال لإزرائل:

- «كلهم يَدَّعون إنتمائهم لعالم لم يرونه، ولكن اليوم تأكد أنهم لاينتمون إلا للتراب الذي عاد إليه أبوهم».

اختفت الأصوات حول شيث، وسكَنت أحشاؤه ليستقبل حوارات من زمن آخر:

- «آدم.. أين أنت؟»

أجاب آدم كأنه من جُب سحيق:

- «أنا هنا وقد شُفِيت من الخوف.. لكنني لم أشفَ من الانتظار».

أجابته كلمة الرب:

«لن يخزى انتظارك... سآتيك وأمسك بيدك وأصعدك لتكون معي.. وإلى الأبد... نم الآن ولتطمئن روحك»

سجد آدم وسبح بحمد العلي وقال:

«أنت وحدك تعلم بي وبحبي لك وعلى كلمتك أنتظرسكنًا جديدا»

«أنت وحدك تعلم بي وبحبي لك وعلى كلمتك أنتظر»

«أنت وحدك تعلم بي وبحبي لك وعلى كلمتك»

«أنت وحدك تعلم بي وبحبي لك»

«أنت وحدك تعلم بي»

«أنت وحدك تعلم»

«أنت وحدك»

«أنت»

أن

«أ»

أنزل شيث يديه بهدوء على وجهه، ليتحسس، لأول مرة تجاعيدَ عليه..!لم يسمع أحد مادار غيره... بينما ابتدأ البعض يلحظون التجاعيد..! كانوا كلهم نيامًا عند نزول آدم لقبره عدا هو.. واستيقظوا بعد أن غاب تمامًا عن عيونهم.. سُمعت جلبة الأطفال أولًا.. ثم أصوات النساء المنتحبات والمنتهرات لأطفالهن..

انسحبت الحيوانات في صمت كأنها ذاهبة لقبورها. وارتفعت كائنات وهبطت أخرى، كل إلى مسكنه بعد أن سكبوا عند المنصة ترنيمات الحمد... دون أن يعلموا... ما صلة هذا كله... بالموت.

ميكائل ظل ناظرًا للقبر، وهو يستعيد قصة البذار الأولى، تلك التي أُرسِلَت بيده لآدم، وكيف علَّمَه وقتها كيف يدفنها -في موسمها- بالأرض... وكيف حزن آدم وقتها لضياع البذار... ثم فرح كطفل حين رآها صاعدة- في موسم آخر - مبرعمة بالكثير من الحياة... هل سيحدث هذا مع آدم؟ سأل نفسه.. وصَمَتْ.

شاحبًا ينظر للقبر، تحسَّر الموت وهو يفكر:

- «فيما كان عليه الموت وهو متحدٌ بالحياة قبل أن ينفصلا..!».

ذو الهامة وحده كان يمتلك الفضول الكافي ليبقى عند القبر بعدهم... متفحصًا هذا التراب... حيث جلست حواء مرجئة العودة معهم... لفضول مشابه.





الوجه الساقط

في سياق الزمان والمكان يتعين
عالم الـ(هو)..
أما عالم الـ (أنت) فيقع خارج
كلا السياقين.

مارتن بوبر

نظر إلى أخيه متفحصًا بعين تملؤها الدهشة المُرَّة، كان يراه لأول مرة. بضع كلمات قليلة كان يختطفها اختطافًا من شفتي أبويه عنه، كانا يشيحان بوجههما عند ذكره، مع ارتجاف قليل في أوصالهما، كان يلحظه.. خاصة لدى أمه. لايعرف لماذا ثبَّت عيناه على يدي قاين[1]، الذي ما أن لاحظ ذلك حتى دسَّهما داخل الفراء الجلدي الذي توشَّح به، وكأنه كان يخفي شيئًا ما، وتحرك؛ ومن حوله عشيرته، بعد أن عانق أمه طويلًا وبكيا معًا، كانت هنا ك نغمة في بكائه تتجاوز حدث موت أبيه، الذي جاء خصيصًا للمشاركة في مراسم دفنه، وهكذا كانت دموع حواء وهي تنظر من فوق كتف ابنها في فراغ دمعي يمتد إلى اللاشيء الموجع، وكأنما اتفقا أن ينظرا في وقت واحد نحو قبر آدم المدفون توًا، وبنفس الاتفاق التقت عيناهما بعيني شيث[2] الواقف عن كثب في توقع لشيء ما نحو أخيه لا يدر يه.

تقدم شيث منجذبًا إليه و بعد عناق حار أجهشا خلاله ببكاء مُرّ غطى مع الوجوه خيبات ماضٍ ملؤه الاغتراب والتيه والمعاناة.

---

1 - ابن آدم البكر، وقاتل أخيه هابِل

2- ابن أدم وحواء، كتعويض عن موت هابِل

كان يعلم بمجيء قاين بعد أن أخبرته أمه بأن حنوك[1] الشاب يأتي كثيرًا للاطمئنان على صحة جده آدم، خاصة في أيام احتضاره، وأخبرته بأنها رأته خارجًا في آخر مرة وبصحبته رجل يغطي وجهه، علمت من قامته ومشيته أنه قاين ابنها، خفق قلبها لمرآه، وخفق أيضًا قلبه حين سمع... وابتسم منزويًا.

تَلَفَّت قاين حوله متفقدًا الكهف القديم، مد بصره، وأنفه معًا، وأغمض عينه وهو يستنشق رائحة الأدخنة والأبخرة التي تخللت مسام الصخر الجيري وهي تصبغ جدرانه بسواد كثيف لا تجلوه أيدي البشر ولا الزمن.

وراحت عيناه لمكان نومه في تجويف خاص بآخر الكهف، كأنه محفور في درجة أعلى من أرضية المكان.. قام صبي صغير منتفضًا من على فراشه القديم فور أن رآه، مر بجواره دون حتى أن يعلم من هو..

نزل بركبته اليمنى على الفراش ومرَّر يده على نقش ما في الجدار القديم، لسلَّة فاكهة بيد أحدهم.. تم كَشط وتشويه الجدارية عمدًا... بيده لحظة غضب – كانت – مصيرية في حياته، شَعَر بسخونة في أذنيه وتصلب قليلاً في ركبته فقام متكئاً على عصاه.

تلفت بتوتر ليتأكد من عدم وجود من يتابعه، ليخطو لقبو صغير

1- ابن قاين البكر

مظلم، أخذ شعلة من الحائط عن يمينه، وولج بسرعة من فتحة القبو بسرعة تفقد المكان الذي وُضِع فيه جثمان أخيه مكفنًا بأطياب -حتى تم دفنه اليوم بعد دفن أبيه- ما زالت تفوح بقايا الرائحة في المكان، سَرَت قشعريرة في بدنه الداخلي، وبرودة شديدة حينما أغمض عينه ليذهب مع الرائحة حيث مثلت القصة بكاملها أمامه مع وجه أخيه،.. انتفض بقوة وأدار وجهه بيده ناحية فتحة الخروج، وهرول كأنه يهرب من أفعى...

لمحته أمه من بعيد كأنها كانت معه.. التقت عينهما للحظة، كانت وكأنها دهرًا..

تحركت أحشاء حواء بوجع، حين رأت في وجه قاين بقايا ملامح أخيه هابِل.. متذكرة حلمًا رأت فيه قبل الحادثة؛ دماء هابِل تتدفق في فم قايِن، وقايِن يبتلعها كلها بالرغم من توسلات هابِلِ لأخيه بأن يبقي شيئًا له... تساءلت في نفسها- وعينها مثبتة على قايِن..

- أيكون هابِل ساكنًا فيه الآن!؟..

تحرك قاين في باقي الكهف، لمح في تجويف مجاور امرأة شابة لم يعرف من هي، ولا هي زوجة من مِن أبناء شيث أخيه، لاحظ أنها حبلى وتتأوه، وأن أمه حواء اندفعت نحوها بلهفة عند رجوعهم من دفن آدم.

من طريقة تعامل حواء لها، عَلِم أنها توشك على الولادة، وأكَّد

ذلك معدل صراخاتها المتلاحق.. رأى النار الموقدة في وسط الكهف والكل حولها تقريبًا، وبعض النسوة والبنات أخذن في إعداد مواقد أخرى في الجانب لتجهيز الطعام.

جلس بجوار أخيه يقص عليه ما دار في الآونة الأخيرة قبل موت أبيهما، وطلب منه بإلحاح أن يسمع الحكاية كما رآها وعاينها قاين بنفسه... ابتدأ يروي... وتحاشا معًا أن يأتيا على ذكر هابل، كانت حواء مع كَنَّاتها بالجوار يعملن، وكلهن آذان صاغية لحديث الأبناء الممتلئ بالشجن والحذر معًا؛ كانت حواء تختلس الكثير من النظرات الحانية ناحية قاين وحنوك، وكثيرًا ما كانت تقطع الحديث بإلقاء ثمرة فاكهة في حضن عيراد الصبي الجالس عند قدمي قاين.

كان هناك اهتمام فضولي من أكليا امرأة شيث، بكل ما يدور، كأنها تدون الحدث بأقواله في قلبها... عينها لم تفارق قايِن. ولافارقت أذناها فمَه.!

نادتها حواء، قامت في لهفة من أمام موقدها، لتذهب معها لهفة لتفقد المرأة التي تصرخ بالجوار. خمن قاين أنها امرأة أنوش.. لأنه الوحيد الذي احتضنها وقبلها مربتًا على جبينها، ثم عاد للمجلس الذي تصدره أبوه وعمه قايين وباقي العشيرتين.

طرف غصن غض لشجرة متسلقة عند الباب راحت رياح

الربيع تحركه ليشارك صريرها الداخل للمغارة محملاً بغبار مخاض الطبيعة، اشترك معهما (كانوب) الكلب الخاص بآدم، بعواء مبحوح كالنحيب، كان يعوي ليومين قبل رقاد صاحبه.

لماذا تزوَّجتَ؟

قال قاين لشيث، ولم ينتظر الإجابة بل بادر بسؤال آخر؛

هل أردتَ الإنجاب حقًا؛ أم هي؟..

وأكمل وهو ينظر في اتجاه قبر أبيهما:

«هل تريد أن تضيف لهذا الموت أبناء؟...

أطرق برأسه وهو يقلب النار في وسط الكهف بعصاه، فاتضحت ملامح وجهه الساقط مع تراقص اللهب؛ قسمات منهارة على الوجهين وكأنها صخور بركانية ذابت وتجمدت على سفح الوجه.. لم يتخيل وجهًا لأخيه كهذا، فقد رآه لأول مرة عند الغروب ساعة الدفن، وبالكاد عرفه.

تصاعدت رائحة غليان ما في القدر، مختلطًا بإضافات عشبية لها رائحة نفاذة، مع ارتفاع ألسنة اللهب من حزمة الحطب بعد ذهاب الرطوبة منها، ومعها انتشرت رائحة عطر زيتي جميل مالبث ان تلاشى، أمام الروائح المنبعثة من القدر.

ساد صمتٌ ضبابي حاملٌ لإجابات وربما لأسئلة كثيرة، بعد

الكلمات اللاذعة المقتضبة التي أطلقها قاين في وجوه العائلة بصدد الزواج والإنجاب، قطعه صوت حواء:

- ها أنت أب وجَدٌّ لأحفاد كثر فلماذا التعجب من امتداد ذريتنا؟

بصوت أجش كأنه آت من عمق سحيق:

هل أنت راضية عن هذا الامتداد؟، هلا شبعت رغبتكِ في الإنجاب؟

قالت له:

- ألم تفرح وتضحك حين اقتنيت بكرك حنوك من عند الرب؟.. وها أنت الآن تتكئ عليه؟

- ومن قال لكِ إنه «من عند الرب»؟...

ألم ترددي هذه التفاهات كثيرًا عني حين جئتُ بغبائكما هذا لعالم أغبى..

من قال لكِ أن الرب أراد لكما أن تنجبا؟ دعينا نَمُت...

كيف يريد للساقطين الامتداد!!؟ وللموتى الإنجاب.!

عجبًا له لو أراد.. والأعجب؛ أنه بعد السقوط والطرد تتفقان وتنفذان معًا مشروع إنتاج نسلٍ تعلمان أنه معدوم الحياة.. وعلى تغذية الموت بولادة مَن حُكِم عليهم مسبقًا بالسقوط قبل أن يروا

الحياة!!... هل كنت تعلمين؟... هل كان يعلم؟

توتَّرت الأجواء، اجتمع الكل تقريبًا حول النار، التي تأججت بعد أن دفع إليها قاين كومة من الحطب كانت بجواره معلنا عن غضب مكتوم لسنين ربما هو نفسه لا يعلم مداه ولا قوته.

لم ينظر لوجه أمه، اتجه مرة أخرى بإطراقة أكبر ناحية النار وهو يختلس نظرة سريعة ناحية شيث الجالس عن يساره.

كان يغمغم للنار وكأنه يمضغها في فمه؛

- «حتى الآن، ومع كل شمس ليوم جديد.. ألعن فيه يوم ولادتي..

مجبرٌ أنا على حياة اخترتماها أنتما بعلمٍ، وأنا بجهل أحياها...

كم فكرتُ مرارًا في إيقاف هذه المهزلة كلها بعد رحيلي من هنا، قلت لامرأتي:

- دعينا نموت فنحن موتى مسبقًا ولا ننجب لهذا العالم المزيد... نعم؛ وتخيلْتُ لو أنكما فعلتما هذا الأمر ولم تتزاوجا.!!..

وانتهت بكما وحدكما قصة المشروع الفاشل هذا؟

وارتاح العالم وبا ريه من قصة أفلتت مبكرًا.!...

أي ّشيطانٍ أوعز لكما بالتزاوج حتى يمتد الموت والسقوط لآخرين لا ذنب لهم إلا أنهم ولدوا منكما..»؟

قال أنوش[1] الشاب بينما كانت جدته تختار مجلسها بينهم أمام النار:

- «الرب قال لجدتي يومها: «نسلك يسحق رأس الحية».. ومؤكد أنك سمعت بهذا ياعميّ، أليس من حقها وحقنا أن نترقب هذا الذي تحدث عنه لنا..؟ فهو آت لاريب في ذلك؟ أوَ ليست في ذلك الإشارة لامتداد وتكاثر؟ وأضاف بلهجة أكثر ثقة بعد أن رأى متابعة الكل باهتمام لكلماته؛

«هو خلقنامن عدمٍ ولم نكن،

منحنا بإرادته الحياة، ولم يأخذها منا حتى بعد أن أخطأ أبوانا، كان رحيمًا بهم، فيما قَدّر لهما، فبقيا وبقينا إلى الآن في ظل رحمته... نعبد، وباركنا لنتكاثر ونملأ الأرض ثانية.. ومن ثمَّ يتابعنا برسائله من حين لآخر.. وأنا بنفسي أتولى دعوة عائلتي له دائمًا، ونفعل أنا وأبي ماكان جدي يفعله.

بضحكة مكتومة أجاب قاين:

1- هو ابن شيث، والذي اصطفاه الله لحمل الدعوة.

- «أتعجب لتسليمك وتيقنك بهذا.. وربما أبوك الذي لمعت عيناه حين ردَّدت أقوال الرب في حديثك أنوش قانعٌ بهذا أيضًا.!!

من أكَّد لك أنهما رأياه؟.. أو حتى رأيا الحيَّة التي ملأت جدتك الدنيا بالحديث عنها وعن كلماتها..!؟

وأكمل قاين:

- «أنا بنفسي سألت أبي أكثر من مرة: «هل سبق أن رأيت الحية»

فقال لا.. لم أرها ولا مرة..

وسألته: «هل قال لك الرب: تزوج؟.. فأجاب بالنفي قائلًا:

- هو أحضر حواء لي.. لكنه - وللحقّ - ترك أمر الزواج لاختيارنا، ككل الأشياء! ... وعندما ذَكَر لي رواية (النسل الذي يسحق)... قلتُ له:

«ربما يتكلم الرب بعلمه عن اختياركما للزواج بإرادتكما وما سيترتب على ذلك من وجهة نظره».. لم يجبني بشيء.

وأنا مُصِرّ الآن؛ على أنه لو كانا استمرا دون زواج؛ لانتهى هذا المشروع برُمَّتِه دون خسائر أكثر، ووقف امتداد هذا العبث المسمى بالحياة... ونحن في انتظار من لا نعرفه ليسحق حية لم يرها أحد إلا جدتك وحدها حتى الآن.!

أومأت حواء لواحدة من كناتها بمتابعة ما يُطبَخ في القدر المعلق، ولأخرى بأخذ مياهٍ ساخنة من قِدرٍ آخر لزوجة حفيدها.

بينما كان قاين يميل بوجهه ناحية أخيه مدمدمًا بلهجة ساخرة: «من عند الرب!»...

فالتفت شيث ناحية قاين الذي أكمل؛ إذا صحّت رواية الحية على فم أمُّنا، لماذا لم تصِحّ رواية أنني.. «من عند الرب».. وأكون أنا الساحق لرأس الحية..؟

فَهِم بعض الحاضرين إشارته لقتل هابِل، وشحبت بعض الوجوه.. ووجم الكل، ليتكلم عيراد حفيده:

- «لماذا إذا لم نعُد للفردوس ياجدي لو صحَّ ماذهبْت َإليه.. وانتهت قصة السقوط والمعاناة بالنسبة لنا؟

- «آه.. يا لفردوس لم نراه.. وربما لن يُرى، قالها قاين بمرارة وأكمَل؛ وُلِدنا مطرودين.. ثم تم فصلنا باختيارات الرب فانعزلنا.

قاطعه شيث:

- أنت انعزلت يوم بنيت مذبحًا لك وحدك، هكذا قال لي أبي.

قال قاين متهكمًا بمرارة:

- هل تلومني لأنني آثرتُ السلامة، وابتعدت عن مذبح واحد فرَّق فيه الرب بين تقدمتينا، حين قبل تقدمة أخي ورفض تقدمتي؟»

ثم أكمل:

- نعم تم عزلنا، وسنبقى كذلك، ولا أرى في انعزالنا أي بادرة قربٍ من فردوس أو غيره...

فلو كان الأمر صحيحًا فلمن منا يكون هذا الفردوس؟

ألنا جميعًا وقد كُتِبت علينا عزلة كالموت تمامًا لامفر منها!. أولادنا يولدون ولكل منهم رواية تختلف عن الأخرى، ولكل واحدة أبطالها وفردوسها بل وربها أيضًا، فتزداد الهوة بينهم وبين الحقيقة - وهي غير مؤكدة - ويزداد الانفصال.. إن كنت تؤمن بكل مافي قصتك ياشيث فلماذاتحتاج أن تسمع لي؟

- «أنت تحكم على الأمور، قال شيث، من وجهة نظرك، وتبعًا لظروف ومواقف ربما سببت لك من المعاناة أكثر مما فَعَلَت بي شخصيًا، ولكنك متناقض مع نفسك، لأنك وأنت في هذا الضباب تنشيء وتبني عالمًا مستقرًا وسمعت أنك بنيت مدينة، ولديك أدوات لانعرفها ولا استعملناها، أنت مستمر

وعائلتك تقوى وتمتلك في الأرض أكثر مما لدينا، بل ومما نفكر مستقبلًا في امتلاكه، نحن في كهفٍ وربما سنبقى فيه.

(غمغم قاين: نعم ستبقون فيه!)...

استاء شيث من اللفتة لكنه أكمل:

- «أنت تبدع كل يوم، في شتى مجالات الحياة، وتمتد وتثمر بمعدلات أعلى من عائلتنا الصغيرة؛ أوَلًا يعكس هذا رضاك الباطن بحياتك وعائلتك ودنياك؟ .. أنت تتجرع الحياة مع مراراتك على درجة التذوق والتجاوب نفسها..! .. كيف لي ولنا أن نصدق عدمية لغتك وحيوية أفعالك..!.. لماذا لم تقتل نفسك.. وقد جربت في غيرك وتستطيع..!؟

أطلق قاين بصره ناحية باب الكهف، مبتعدًا عن العيون التي كانت ترصد انفعالاته تجاه ما يقال، سَرَت همهمات أحاديث جانبية بين بعض الأبناء والأحفاد، بها من التلغيز والترميز ما يكفي لطرد أي تجاوب مع تصنع التردد الصوتي المرافق لضحكات خبيثة تبادلها البعض، وهو ينظر في عيون الكبار ليرى تأثير ذلك على سياق الجلسة..

تنحنح شيث بصوت واضح لينهي اللغط الدائر في الأجواء، وجد بذلك تجاوبًا سريعًا اكتمل بصمت تام، وعيون مفتوحة قبل الآذان من الكل، حين ابتدأ يقول لقاين:

- «أبي حكى لي عن رؤيتك في وقت ما للرب... هل حدث ذلك فعلًا»؟

عاد قاين ببصره للمكان كأنه من سَفَرٍ طويل، جاب فيه الأرض، وببطء أجاب؛

- لم يتراءى المولى لأحد بعد أبي إلا لي! تراءى لي مرتين، وفي المرتين؛ حَمَّلَني بموتٍ على موتي..!

لا تتعجب يا شيث، ويا أمي لا تتعجبي.

في الأولى كان الموت هو في عدم قبول تقديري وتقدمتي له، ورفع أخي عليَّ، بل وطلب مني قبول الحياة كما حددها هو وقبل أخي بشروطها التي لم يعلمني أحدٌ بها - ولا بغيرها من قبل- !،

شعرت بعد حضوره بغضب لم أستشعره من قبل، وكأنني حُمِّلتُ به.! في وضع اختيار، ودفع لمجهول مماثل تقريبًا لوضع شجرة معرفة الخير والشر أمام أبوينا.!

كيف أختارُ بغضبي؟ كيف أقررُ بعد أن سلَّط بالفعل سيف موتٍ جديدٍ على ميت بالفعل؟! وحتى لو تبت فأنا محكوم بموت جنسنا، لأقدم ذبائح تسترضي وجه من أبقانا في سقوطنا؛ دون موت.!

قصَّف قاين العصا الصغيرة التي التقطها من الأرض، بحركة غير

واعية وهو يكمل:

وبعد الحادث، التقاني وحَمَّلني بموت آخرٍ، ونفيٌ أبعد من نفيٍ كنت أحياه بالفعل بين أفراد عائلتي.!..

حمَّلَني بموت يمسكني ولا أُمسكه،

أطلبه و أخشاه في نفس الوقت.

أنتم لاتعرفون قوته وجلاله... عندما نظر لي بوجه الغضب، وقَبَضَني...صرتُ حاملًا لغضبه وقبضةً بها حَمَّلَني.. نعم، حَمَّلني بحياةٍ لا أعرف التخلص من قبضتها، وأن لا ينعم حتى الأقرب مني بالتخلص- إن غَضِبتُ – من قبضتي..

أتذكر الآن حين رجع أخي بوجه فرح مضيء بعد قبول تقدمته.

قال لي:

- «أشعر بروحٍ جميلة أتت واستقرت في داخلي، جاءت مع النار التي أكلت ذبيحتي..!»

«مُنِح هو قلبًا لطيفًا مضيئًا، بعد أن نُزِع منه القلب الحجري ليستقر فيَّ.!!»

«ولا تبديلاً لقلب إلا بأمر من زرعه على ما رأى واستحسن».

موسومٌ أنا بقَدَرٍ أن أتحرك كقبر حاملاً لجثة تشبهني قبل سقوط الوجه مني.!..

ليته قتلني، كان أهون كثيرًا مما ينتظرني، كُتِبَ عليَّ أن أكون كتابًا ينتظر قارئًا أعمى يغلِق هذه الصفحات المنثورة في هباءٍ لا معنى له غير أن أظل رهينة من يفسِّرني.!

اشتهيتُ؛ ومازلت أشتهي موتًا رأيته في عيني أخي مرة، ولم ألحقه في عيني أبي حين مات ولم ينتظرني.

قالها وانفجر في بكاء مكتوم وغطى وجهه بكلتا كفيه، وسَرَت إجهاشاتٌ غير معلومة المصدر، وردَّد صداها صخر الكهف القديم، كأنه هو الآخر... يتذكر شيئًا ما على طريقته.!

حفيف احتكاك الأغصان الخفيفة ببعضها في الشجر المطل على باب الكهف من الخارج يزداد، عنيدة تلك الأغصان المرنة في مواجهة الرياح المهدفة لبتلات زهر ينتظر موسم العنف المخصب للحياة.

بنبرات متكسرة صعدت الكلمات على شفتي قاين المرتعشتين لخلجة في نفسه لم يستطع ضبطها كما اعتاد من قبل..

«عُدنا سويًّا يومها من منصات القرابين بعد إصعاد تقدمتينا، وهو يدندن في جزل، رغم رائحة الدماء والدخان التي ملأت ثيابه جراء الذبح والتقديم، ابتعدت عنه وأنا ألتفت خلفنا لأرى كومة

حجارته تتصاعد منها نيران لا أعلم من أي مكان أتت، وهو يسبقني ليخبر أمي برضى السماء عليه، اقترب أبي منّي وحاول أن يشرح لي أنني أيضًا مقبولٌ إن أحسنت اختيار ما أقدم، وأنه لمح في عيني غضبًا يخشى عليَ منه... كأن ما يطلبه أشبه بإعادة ثمرة لمكانها على الغصن بعد أن انتزعها بيده!...

صمتُّ، حتى سمعت صوت أمي من الكهف تحتضن هابِل، وتنظر لأبي وليَ نظرات أحرقت ما تبقى في قلبي من حوار حول تقويم ما أعوجه القدر الذي دعا هابل للرعي ودعاني مثل أبي لنعمل الأرض ونحفظها...

قاومت ليلتها نزيف المرارة في داخلي وأنا أعتصر ألمًا حين التف الكل معيِّدًا مع هابيل، وهم يمُرّون عليَ بنصح من عل، تأباه نفسي حتى لو قُدِّم لي وقتها من الرب نفسه، فقد كان الأمر محسومًا من قبل، علِمتُ هذا من تحذير أتاني متأخرًا بعد أن تم كل شيء، تمامًا كزيارة القمصان بعد انفضاض موسم العري لأبوينا،

«ألقاني في اليمّ مكتوفًا وقال: إياك إياك أن تبتل بالماء»[1].

قال هذا وأشار بيده لأمه وهو يشيح بوجهه عنها، موجهًا الكلام

1- الحلاج

لشيث: كانت أمه هو، أبدًا لم تكن أمي... وكان ربًا له، لو كان ربي لَعَلَّمني، لا أن يقول لي بإطفاء نارٍ - بإرادتي- ألقاها هو في قلبي.

انكسر بداخلي شيء يعصى على الجبر، وأدركت أنني كهراوة قُطعت لتُستَخدَم فيما بعد... للقطعِ، البستاني وحده يعلم ما يحتاجه لبستنة الساقطين».

اقتربت منه حواء بهدوء وجلست بجواره بعد أن أفسح لها شيث مكانًا، وضعت يدها على كتِفه قائلة:

- «اليوم ودَّعنا أغلى من كان لنا، هذا الذي عاش لأكثر من تسعمئة وثلاثين عامًا، حسب تقدير حفيدنا متو شالح، لكنه مات ودفنَّا معه هابِل الذي لم تقبله الأرض لحين قبولها أبيك آدم الذي أُخِذ منها أولًا.. وودَّعنا معهما الكثير من أحزاننا ووجع ماضينا، لماذا تفتح هذه الجراح اليوم يا ولدي؟

- ومن قال لك أنها التأمت؟...

واسألي نفسك من فتحها في الأصل!؟

أأنا أم الرب.!

بتفضيله غير المبرر لأخي من دوني؟..

وهل يُغلِق أحدٌ ما فتحه الرب!؟..

ماذا صَنَعَت قمصان الرب لكما بشأن تغطية ما فُتِح في أعماقكما ولن ينغلق.؟

تراكمت الصور في زخم قلقٍ أمام عيون الكل، وتباينت النظرات بين الدهشة والحيرة وعدم الفهم المصحوب بتساؤلات أكثر،

وكأن موت آدم ورقاده أحيا ما كان راقدًا تحت الرماد؛ متأججًا في نفوس الجميع بلا استثناء. كما فعل تمامًا موت هابل في أرواح كل العائلة وقتها.. وأكثر.

كأنما كُتِب على الإنسان أن يعود مع كل موت لأصوله الأولى بالسؤال الذي يصطدم ويرتبط غالبًا باللامعنى لوجود يحتضر مندفعًا لنهاية رسخت عميقًا في وجدان أبناء ولدوا ميتين ليحيوا في احتضارهم إلى المثوى الذي يعود ليفجر أسئلة أخرى.. ودواليك.!

«ما كان أشبه الليلة بالبارحة» قالها قاين وكأنه يرفع مرثاة، فانفتحت عيون الجالسين قبل آذانهم ليروا ماذا سيلقي هذا البركان من حمم أخرى.

قام قاين واقترب من باب الكهف وأرسل بصره للبعيد المظلم وقال وهو يستند بجانبه على الجانب الأيمن للمدخل:

- «تحسبون أيامكم وأعماركم لمجرد وجود معنى لها في وعد قاله الرب لأبوينا، وأصبح لكم به حقٌّ في الأيام، هذه التي تفلت من

يدي هاربة مني وكأنها تعلم بحكم تيهاني، كل الأيام تعاديني ولا تتعاطف مع قضيتي، هي شامتة بأوجاع لا أحتملها فكيف أحتمل العيش فيها دون دعمٍ منها.!

كل لحظة فيها تتحول فور وصولها إلى ماضٍ مرتبط بذكر ى ممسكة بتلابيب موتي بلا انفلات، وكأن زمني لا يتحرك من تلك اللحظة، لحظة نظرتُ في عيني أخي وهو يحتضر، انتابني احتضاره وإلى الأبد، وتلَبَّسني غياب دائم لكل ما هو آت، اللحظات نفسها اتفقت أن لا تتحرك بي إلى أي غدٍ ممكن، وفي هذا أدور مقيدًا بدور لا يعلمه إلا من أجبرني على السير فيه لهذا الوراء المنفي.

اسمح لي ياعمي،

قال أنوش وهو يقترب من قاين عند الباب:

«أنت لم تخرج أبدًا من نفسك، نحن نعبر أيامنا ونعدها وتعدَّنا هي بدورهالأننا اخترنا أن نعيش وكل منًّا له آخر يرى نفسه فيه ومن خلاله، أنت نظرت لهابِل كما يعني هذا لك وليس له، كنت تبحث في نقصه عن نفسك، عن تفوقك، وعملك، وقبولك وعدم قبولك، لم يكن له وجود لذاته؛ أنت أقصيته قبل أن...

(صمت) لم يكمل أنوش الكلمة، ..

– هو مات بالنسبة لك قبل أن يموت، لم يعن وجوده لك شيئا؛

هو عندما ذهب بتقدمته للرب ولسان حاله يقول:

«هو. (الذبيحة). وأنت (المستحق)»...

بينما قدمتها وأنت تقول:

«أنا.. وتعبي أنا.»

ذهبت إليه بقوتك وحدك وهذا في حد ذاته اغتراب وتيه عنه وعن أخيك..

لا تؤاخذني، عمي هابل كان يبحث حتى في عبادته عن كائن حي آخر يقترب به ومعه إلى الرب...

وأنت كنت تبحث عن إنجاز وأعداد يفوح منها رائحة عرقك، ذهبت إليه بفعل ماضٍ من أفعالك، فظللت سجين ماضيك الذي اخترت أن تقدمه للآتي، وهو قدم حاضراً مذبوحاً يتحدث بدماء حارة عن قوة حياة متدفقة تملأ الحاضر وتتحرك بالمقدم داخلة به عالم الحب المضحي فظل قائمًا هناك، ونحن ما زلنا نقدم على طريقته وعلى نفس المذبح.

بصوت متآكل عالي النبرات سُمِع صوت حنوك من جوار النار، مجاوبًا أنوش:

- «وُلِدت مثلي تمامًا يا أنوش كوارث للسقوط، ولكنك ورثت

معه ضعفًا وخنوعًا جعلك حبيس هذا الكهف، وهذه الصور التي لاعلاقة لها بالواقع، أنت ورثت الموت وعشت تجترّ على ذبيحة في الماضي، تعطيك معنى غيبيًا لحاضر لاتضيئه سوى كلمات لوعد لم يتحقق، بينما أنا ورثت هذا الموت، وأحيا كل يوم للتخلص منه ومن أفكارك عنه وحتى عن حياتك تلك التي لا أجد لها معنىً، فأنت تكرار مملٌ لسابقيك في نفس الكهف، وببغاء تردد كلمات توارثتها، لا رأيت قائلها ولا تعلم لها تفسيرًا، بينما أنا صنعت مدنية وحضارة تقهر عالم الموت هذا الذي تقبع أنت فيه حالما بالمخلص؛ أنا تخلصت من أوهامكم بما قدمَت ذراعايَ لغيري، كما قدم لي والدي الذي اتهمته أنت بالأنانية، وهو الذي بنى المدينة التي دعاها باسمي وليس باسمه هو..

هذه الأبواق والأعواد وآلات الغناء والمعازف التي تهيئونها للمولود الجديد؛ من صنعها لكم؟

المصابيح التي تضيئون بها كهوفكم العفنة، والمطارق والمعاول التي تحفرون بها لدفن موتاكم وأشيائكم، من حفر وقلب الأرض وأشعل نارًا بهذه القوة ليصنعها، وبنفس النار يصيغ ما يزين صدوركم الممتلئة بالهراء، وبطونكم الممتلئة بالخضروات والفاكهة

التي تبتاعوها من أسواقنا؛ من تعب ليزرعها لكم بينما كنتم تقفون كالتوابيت أمام مذبح الميت لتنزفوا دمائكم الفاترة لمن لا تروْه، وربما هو لا يعلم شيئًا عنكم أكثر مما تعلمون.

توبال ويوبال حفيداي، اللذان جلبا كل هذا الفرح والبهجة والحياة لعالمكم الكئيب، وليملئا الفراغ القاتل الوالد لكل تراهات نفوسكم المريضة باللاعمل في أوهام الغيب المهدف.

لازلتم تعولون على البخور ونباتات الجنة في الشفاء في أدوائكم، ونحن نعكف ليلًا ونهارًا على كل عشبة ونبتة، نعتصر منها الشفاء، الذي لم يمنحه لنا إلهكم، بل أخذناه غِلابًا... فصرتم أنتم أهدافًا للمرض..

بينما نحن نستهدف الموت نفسه في مقتل.. وحين وُلِد ابن لتوابل أسماه قايين، ليظل اسم أبينا حاضراً فينا متحديًا للموت الذي يحتضننا جميعا كبشر، وتمسكًا بالحياة لأقصى حدٍ وأبعد جَدّ.!

سُمِعَت أصوات تتعالى وتتضارب في وقت واحد من منطقة النساء، وابتدأت تتضح اتجاهاتها التي تجمع الأنظار وطاقات الحضور للاهتمام بحالة الولادة الراهنة بمتطلباتها من العائلة،

شعر بذلك قاين فرفع يده للجميع وهو بالباب وهو يقول:

نراكم غدًا، وانصرف حتى دون أن يسمع الرد، الذي تبع خطواته وهو يندفع لتبتلعه ظلمة الخارج؛ وخرج في إثره قومه بعد أن ودعوا الجميع، متجهين لخبائهم المنصوبة خارج نطاق شيث، حيث يبيتون ربما لسبعة أيام أخرى في وداع آدم أبيهم.





شهقة الغريق

المياه كلها بلون الغرق

إميل سيوران

كلنا نلعب، في غمرة اليأس غير المكتمل -كلما اكتمل يأسٌ نقصنا واحدًا- لعبة ممتدة كحوار مملٍ لا ينقطع بين الليل والنهار، حتى وإن كنا كبارًا، الليل لايشيخ ولا يَكُف عن الولادة، وكل النهارات تبدأ بفجر يتدرج فيه نور لا يكتمل أبدًا، بينما يظل الليل عفيًا معظم ساعاته - الشمس هي الفاعل- وفي الشتاء يتحصن ضد رجاءنا، بهذا الطول الساخر والبرودة الماكرة، تركتنا الشمس -كعادتها- وراحت تضيء في مكان آخر.

للحنين كثافة تجعله مكتفيًا بذاته، دون احتياج لمبرر أو حتى لفعل حب أو غيره، مما جعل «لامك «القايني[1] ينسجم مع «متوشالح» الشيثي[2]، جلسا في اليوم الثالث لموت آدم، كان دجلة يجري مندفعًا تحت أقدامهما، حيث جلسا تحت صفصافة كبيرة، كان أخنوخ يجلس عليها في منتصف رحلته التعبدية كل يوم، حتى أخِذ، قال متوشالح:

1- هو الابن السابع من قايِن. تكوين 4/ 18.

2- هو الثامن من آدم، وابن أخنوخ (النبي إدريس) وقد عاصر آدم لمدة 200 عام. وعاش لمدة 969 سنة، مما أهله ليكون حملا للتواتر بين الأجيال حتى الطوفان، الذي جاء بعد موته مباشرة بحسب الرواية التوراتية. تكوين 5/ 26.

- ولم نعلم مكانه حتى اليوم، لكنه ترك لنا الكثير من الكلمات النبوية، عمَّا سيحدث لنا غدًا.

قال لامك مستكملًا لحديث طويل، رافقهما من الكهف حتى وصلا معًا للنهر:

- ها أنت تقول «كلمات» كلها، كلمات لا أكثر، تعطونها أهميةكبيرة، لأنكم تقريبًا وبحسب مارأيت؛ لاتفعلون شيئًا يذكر على هذه الأرض... لا تغضب منّي.

قال متوشالح متجاهلًا فكرة الإغضاب:

- وأنت، أيها الشاعر [1] ذائع الصيت، أليس الشعر أيضًا مجرد كلمات..

ضحك لامك، وألقى بحجر صغيرفي النهر الجاري،

وقال:

- نحن نرى أنفسنا في الشعر، نتعرف على حياتنا، نُعَرِّف بقلوبنا وما يدور في العمقِ من فكر، نجعل حياتنا أجمل، وأقرب لفردوس آخر نصنعه من لغتنا الجميلة.

أنتم ترون فيه الرب، وانعكاسات وجهه الغامض تملأ حكاياتكم،

1- لامك هو أول من قرظ الشعر، حسب التدوين التوراتي. تكوين 4/ 23.

الشعر عندكم يلقي بظلاله الوهمية على الآتي، من إضاءات مضت. ويُحقِّر من جمال هذه الحياة، ولا يرى جمالًا في الأحياء.. بينما الإبداع يحمل لنا خلاصًا مستمرًا، لا يحمل إبداعكم سوى إشارة مفرغة لخلاص في نهاية المطاف.

أشعاركم أيضًا تعرِّفكم بأنفسكم التي تريدون أن تكونوا عليها معه، وليس كما هي في الحقيقة، لذا تريحكم كلمات النبوة، لأنها محملة بذاكرة الأساطير العظام، فتزيد بهذا من وهم العظمة لديكم، تلك التي لا تساهمون فيها بشيء للأجيال الآتية غير توجيه واستثمار ما ينتجه غيركم ليستمر وجودكم هذا العبء علينا جميعًا.

- عمّي لامك: الكلمات عندكم وسيلة للتعبير، وعندنا هي العبور نفسه...

ما قاله آدم وشيث وأخنوخ، ليس مجرد أحرف، هو قوة حياة، نحن موصولون بها لعالم أنت لاتراه ولا تعترف به، وبشخص يرحل معنا قدر خطواتنا، وببعضنا، هذا الاتصال يمنحنا قوة ورجاء غير منظور لكنه حي، وهو ما يجعلنا نحمل أحدنا الآخر، كما نحمل تاريخنا المقدس في رحلة الخلاص المُعَّد لنا. جزء من خلاصنا.

كلماتكم تفككم أكثر، لأنها تزيد في كم تميز الفرد باستعلائه، وارتكانه لقوة المادة المستخدمة سواء حروف أو أفكار، أو حتى

معاول، مما يجعلكم تعبرون أحدكم فوق الآخر، تسقطون تحت عجلات التاريخ نفسه الذي رفعتموه فوق رؤوسكم، بينما نعبر نحن فوقه حاملين بعضنا، كيلا يسقط أحدنا فيه تمامًا.

قال لامك:

- أرأيت.. أنت تحتاج دائمًا للبرهنة على أن كلماتك هي الحق..

نحن لانبرهن على أشعارنا ولا نريد،

هي تُفهم بما هي عليه وما تحمله لمن يقرؤها في سياق حياته الخاصة، كما يحلو له أن يفهم الحياة كحق له.

هي في ذاتها البرهان أننا أحياء.. بل ربما تبرهن بشكل ما على وجودنا نفسه وليس العكس.. كل شخوصكم وأشياءكم تحتاج للبرهنة، لأنها ليست ثابتة، أنتم جعلتموها كذلك لاهتزاز في أرضية أفكاركم.

قال متوشالح:

- هل المدينة والقوة والنحاس والأخشاب هي الثبات في عيونكم، والباقي اهتزاز، هل هذه ماتمنحك البقاء؟، أي شيء تبقى عليه؟

أين أرواحكم، أين تذهب بألمك وحبك وغضبك وشجنك؟

ماذا تصنع بمخيلتك؟

كيف تتعامل مع حلمك؟

ومع اللذين يحلمون بجوارك؟

أين العائلة التي ستحمل وعيك كما هو متسع في قلبك وليس تحت يدك؟

على الأقل، أنا أبرهن، لكنني لا أمسك هراوة لأضرب بها رأسك لأنك نجحت فيما أفشل أنا فيه..».

قاطعه لامك بحدة:

- سوف تفعلها إنما على طريقتك، فلكل فكر أسلحته، سوف تبيد أبنائي لأنهم ليسوا أبناء للرب، وربما ستجعل من ربكمُ مشَرِّعًا بهذا لقسوتك، وستهدم ما بَنَينا لأنك لاتؤمن بالأرض، وستكسر سواعدنا لأنك لاتؤمن إلاّ بقوتك المريضة...

ستدمر ما نقشنا، لأنها تذكركم بالإنسان الذي ضحيتم به على مذبح الإله.

لكنني أُذَكِّرك بأن الإله سيُضَحَّى به أيضًا على مذبح الإنسان. وقت تفعلون ذلك. سيموت الله على أيديكم، وستفعلون هذا بقسوة تفوق ما ترونه فينا.

نحن أقصينا الله بهدوء وبحكمة، وأنتم ستضعونه بكل غباء أمام عنف الأقدام الغبية، تلك التي تغذت على الحقد والوهم طويلًا.. ستلتهمه وتلتفت لتسحقكم.

أنا لم ألغِ الرب، ولا الغيب، ولكن أنتم ستفعلون، إذ إنه من المؤكد أن تفكيركم هذا سيصنع أجيالًا مجبرة على الكفر به لأفكاركم عنه وعنكم.

قال متوشالح:

- الحب، والحب وحده يجعلنا ننجو، حتى من أفكارنا، هذا ما تعلمناه، نعم نحن نحبه ونحفظ وصيته التي ينهانا فيها عن القتل، قتل الحياة بذريعة النفع، الحب لا يتحرك بالأسباب، هو يخلقها. بينما أنتم تتحركون بمبدأ النفعية.. فتُقصُون ما ومن لاينفع دنياكم..

الحب يرفض هذا ويبقي على النافع والضار، إلى أن يفصل بينهما الخالق، عرفنا الله بالحب وكذلك الإنسان، من لايؤمن بالله لا يؤمن بالإنسان، وأقول بمعاييرك: إن أنت أقصيت الله، أقصيت الإنسان معه، وإن أقصيت أناك، بماذا ستحيا؟ بغرائزك...؟

أنا سمعت أنك متزوج بامرأتين..! أنت أول من يفعل ذلك! لاأطلب إجابة، ولا ألومك، ولكن؛ ألوم الفكر الذي أنتجك بهذا الشكل، وتريد منَّا أن نتبعك!.. إلى أين؟

إن كنت لم تشبع أنت برغيفك الذي تقنعني أنه كافٍ جدًّا لإشباع حياتي؟!

أجاب لامك ساخرًا:

- الحب، هو أيضًا مادة مطاطة هلامية تستطيع أن تشكلها على صورتك كمثالك، ولا أرى فارقًا كبيرًا بين الصورتين، لكنني أراك غارقًا في نهر المُثُل على مبدأ الانتفاع أيضًا، إنما- بحسب رأيك – بالأفضل.

أنت نفعي أيضًا، إنما بالارتباط بما هو للرب، هذا الذي تقولون عنه إنه مكتفٍ بذاته، هل أمَركم هذا المكتف بكل هذه المنافع لأجله؟.. لماذا تقدم له ذبائحك؟ إن كان مكتفيًا..! أم أنك أنت لنفعيتك... لاتكتف.!؟

أنتم تنتظرون نسلًا يسحق رأس الحية، لتنتفعوا في الغد بهذا الذي سيطفئ لهب الشوق للانتقام وأخذ الثأر، ورفعة الرأس على عدوتكم التي أوجدتموها لتبرروا أفعال انتفاعكم الروحاني بالرب.

ونحن لانكف يومًا لنجعل من نفوسنا نسلًا يستحق العيش وهو يصارع يوميًّا لأجل انتصار جنسنا ليس فقط مع الحية – إن كان لها وجود – بل مع الموت نفسه وكل ما يقف ضدنا! أي نفع ترى أنه مثالي لو فكرت بعقلك للحظة؟

قطَع الكلام صوت أقدام تتحرك على بعد خطوتين منهما، وراء الشجر الكثيف الذي استندا عليه في جلستيهما، كان يوبال الشاب الجميل، يخرج من بين الأغصان المتشابكة وهو يقول بمرح متبسط لايلوي على شيء: أعتذر بشدة، فقد سمعت كل ما تكلمتما به، وقصدت ألّا أتدخل من البدء، كي لا تحجبا شيئًا عني لصغر سني نسبة لكما ولخبراتكما التي جعلتني أحبس أنفاسي مع كل كلمة تشاركتما بها.

لكني، لم أعد أطيق الصبر على إكمال السمع دون أن أسأل وأتشارك معكما بما يهمني وأومن به شخصيًّا، سواء أضاف أو لم يضف شيئًا، فهذا لايثير فيَّ قلقًا على شيء.

الفرق بيني وينكما، أني لا أفكر وأرتب ما أتكلم به في هذه الموضوعات مثلكما، فأنا أجد أنها لاتستحق لا الترتيب ولا الجهد المبذول في استنباطها وتحليلها.. لاأرى جدوى في حمل الحياة مثلكما على أكتاف عاجزة، وكل محاولة لتفسير الموت الذي انتابنا جميعًا، هي تفعيل لقوته، تلك التي تتغذى على معرفتكم به أكثر.

أناأعزف[1] لأتفادى محاورته، محاورة الموت هي نوع من النزيف المستمر.

1- يوبال كان أبًا لكل ضارب بالعود والمزمار، كما ذكرت التوراة في تكوين 4/ 21.

الموسيقى تعيديني لما قبل الانفصال والتمزق، وتجعل مني وطنًا أفضل لي ولكل المختلفين- معي أو معًا - بفعل جمعها للأصوات، وحَمْل هذا الصوت الآتي من بعيد.

بمجرد أن أعزف، أتسع في زمن آخر، وفي حضورها يتسع زمني... نفس الزمن الذي ضاق بأفكاركم علينا، فضقنا به.

منذ تابعت حديثكما، لم أركما تضحكان مرة، أعرف أننا في أيام حداد على جدي العظيم، ولكن هذا ما يحدث دائمًا مع مثل هذه الأحاديث، بغض النظر عن المتحدثين وزمنهم. الضحك كالموسيقى، جنون نستحقه قليلًا بعد كل هذا العقل القاتل!.

قال لامك:

- «أنت كموسيقاك، تأتي بعد أن يتمكن الداء من نفوسنا».

ما أن سمع يوبال هذه الكلمات، حتى استأذن منهما بأدب، وتركهما منطلقًا في حبوره الشَبِق... غير عابئ أن يُثَّبت وجهة نظره، أو غيرها، فلديه الكثير من الحياة ينتظره، وهي، تمامًا كالموسيقى؛ تُبَرهِن ولا يُبَرهَن عليها.



قوس قزح

اللون هو
أَلمُ الضوء

جوته

«عاش دون أن يعرف الحياة، ومات قبل أن يتعلم الموت».!

قال هذا وهو يسرِّب من قبضته حفنة تراب ببطء، وكأنه يسحقه، لينسكب فوق قبر آدم، بينما أسفرت شفتاه عنٍ ابتسامة غامضة لا توحي بشيء.

ورفع رأسه للسماء وقال:

- «لماذا لايرتفع التراب للسماء..!!؟».. «حاولت أن أشرح ذلك.. ربما يمهلني وقتًا أطول مع هذا الجنس الشاذ، لأقوم بذلك، مع باقي اهتمامًاتي معهم».

قال هذا ومَدّ يده ليقبض حفنة أخرى، مما سُويَ بها الثرى فوق القبر..

هَبَّت عاصفة أمامه لتتشكل وهي تدور كالإعصار لكائن جميل لامع، ذي وجه يفيض بالقوة والفضيلة، ولباس يوحي بأنه قائد حربي، تَقَدَّم حتى صار القبر الرابض، فاصلًا بينه وبين الرجل الواقف..

ثم تكلم كأنه في مهمة، يريد إتمامها بتعجلٍ، قائلًا:

- «أيها الكروب الساتر.. يا ذا الهامة الشعراء، لديَ أوامر بحماية هذه الكائنات، فلا تدفعني لطلب معونة الرب ضدك، وإذا أردت أن نتحاج؛ فهذا متاح في حدود مهمتي».

«ميكائل..!»

ردد الاسم بأسلوب يوحي بأنه كان يتوقع قدومه،

وأضاف:

- «ليته كان حيًا الآن يا صديقي القديم، ليتعلم شيئًا عن الصدفة، بعد أن استوفى دروس الفوضى، ولكن؛ ربما لم يمتلك القدر الكافي من الخوف، الذي يؤهله لذلك.

ربما كنتَ اليوم مؤهلًا ببعض ما كان ينقصه.. في التعرف على الخطر، وارتياد المجهول على مبدأ الصدفة.. لتتعلم شيئًا جديدًا، .. أم ستخيب ظني وتخبرني أنك لازلت عالقًا في رتبة الرتابة القاتلة للمعرفة الحقة».

قال ميكائل:

- «ربما كان وقت احتضاره كافيًا، للتصالح مع نفسه، وإعادتها ثانية بين يدي المولى.. ولعلك تتفق معي أن الخوف أو الفوضى ليس لهما من القوة ما يكفي لإفساد عملية الاحتماء برحمته

تعالى... ونحن لا نحتاج للكثير من الصدفة في هذا لنتعلم».

ذو الهامة الشعراء:

- «لم تتبدل أدواتك يا ميكا، قناعاتك الأقدم أنك تستطيع المطابقة دائمًا بين معرفتك والموضوع، مع أن الحالة الآدمية تقتضي منك- ربما مع كل فرد على حدة- خبرات وليدة الموقف.

- «كل شجرة منهم، لاتتشابه فيها ورقة بأخرى. وليس من مماثلة بأي شكل بين شجرة وأختها حتى من نفس الفصيل... لكنهم؛ يتشابهون في الاستعداد للحرق أسرع من أي صفة أخرى بما فيها التكاثر والنمو».

قال هذا كأنه يُحدّث نفسه، ثم التفت لميكائل وأكمل في نفس السياق:

- هذا الكائن الترابي أُعطي له أن يغير معايير كثيرة في المعرفة... ويموت جاهلًا في ضعفه كما ترى الآن.. آدم نفسه لو كان حيًا، وعرفك؛ سيراك بمنظورية مختلفة في كل مرة تبعًا لأشياء فيه، تتحرك غالبًا بصورٍ لا تتطابق ولا تُتَوَقَّع.

ليست المشكلة بالنسبة لي في هذا، فهو محدود بأشياء أُخرَى نعلمها أنا وأنت جيدًا.. إنما مشكلتي معهم كجنس هي، أنه كلما صادقت

أحدهم، ووطدت علاقتي به على نحوما؛ مات. نعم ياميكا، موته مزعج لي، كوجوده تمامًا»..

قطع حديثهم صوت خطوات قايِن وشيث آتيان إلى القبر.. كان من الواضح أنهما تواعدا على هذا المجيء، الذي يحمل طابع الخلسة عن كلا العائلتين.. أنبأه وجهاهما -وتجهمها- عن حافز هام لهذا اللقاء...

أحس شيث بحضور غير طبيعي عند القبر، امتزج فيها الانقباض بالبسط في روحه، بينما ظلت الحجب موضوعة على عينيه فلم يرَ أيًّا من الكائنين المتواجدين بجوار القبر.

بادره شيث بالسؤال:

- لماذا طلبت أن نتقابل هنا يا أخي؟

استدار قايِن مقابله وهو يضع كلتا يديه على كتفي شيث، ليتلائم وضعه مقابل وجهه وقال:

- «أرح قلبي ياأخي وقل لي: هل علمتَ شيئا خاصًا بمستقبلنا، تخفيه عنِّي؟ هو لم يعد يتكلم لي... وأنا قد لاحظت بعد صحونا جميعًا عند الدفن، على وجهك بقايا كشف ما، أُعلِن لك وقت أن غيبنا جميعًا في النوم عاداك.

برفق أنزل شيث ذراع قايِن اليسرى بكفه الأيمن، وهو يقول: بالصدق، لم يعلمني بشيء بخصوص هذا، ولا أخفي عليك أن ما رأيته وسمعته هناك، جعلني في حيرة أكثر مما كنتُ عليه... فكل الأشياء تتحرك وتعمل معًا، الموت والحياة، والجهل تساوى عندي بالمعرفة، فكلاهما يطرحني ثانية في غابة ضبابية، تزداد كثافتها وثقلها على نفسي، مع كل خطوة أخطوها معه.. ربما عافاك منها ليسعد حالك بما لا تعرفه، على الأقل أنت تخطو على الأرض في ثبات أكثر مني.. أنا لا أعرف حتى الآن على أي نحو أتحرك... هنا على التراب مثلك، أم معه في عالم أجهله .. والوحيد من أبنائنا الذي علِم شيئًا عنه... أُخِذ ولا نعلم شيئًا عنه حتى الآن.[1]

قال قاين وهو يشيح بجسده وعينه عن شيث:

- «إن كنت تقول هذا لتهدئتي فأنت مخطيء.. ولا تعرفني كما ينبغي لك أن تعرف».

صَمَت قاين ثم قال بصوت متهدج، في اختناقة شجنية:

- «أنا أحبه مثلكم، وربما أكثر، لم أُرِد أن أقتل أخي.. صدقني.. ولم أرد الابتعاد والتغرب عنه ولا عنكم... كل ما أردته في

1- عن أخنوخ/ إدريس النبي، يتحدث.

حياتي، أجدني أفعل غيره تمامًا، وكل أفعالي غير مرضية له.. ولا لكم.. بل وأنا نفسي لا أرضى عنها..

ملعون أنا قبل أن تلعنني الأرض -كما قال لي هو ذلك بنفسه- لعنة تدفعني لهوة مظلمة، لا أريدها، لكنني اشتاق إليها شوق من يريد الاختباء فيها من الحياة معه، تلك التي لم أستطعها، ولم أقوى عليها.. أنا أهرب مني، لا من وجهه... الذي أشتاق إليه.. ولا أطيق النظر إليه في نفس الوقت..

اختنق صوته أكثر، ونزل على الأرض، دافنًا وجهه في التراب، وأخذ ينتحب قائلًا: أنت شبعت بأبيك.. وبه.. وأنا حُرِمتُ من أبي ومنكم.. للدرجة التي كرهت فيها كلمة «أب»... وأحيانًا كثيرة أنتهر أبنائي حين ينطقون بها، وأعنفهم:

- ادعوني قايِن فقط... نعم، اسمي الذي كرهته لأنه أيضًا يربطني به، ولكنه أخف وطأة على نفسي من ذكر أبوة حُرِمتُ منها وأنا في شدة حبي واحتياجي لها.

نظر ميكائل في عيني ذي الهامة، ليرى وقع هذه الكلمات عليه... ربما بدافع من فضول معرفي انتابه لحظتها..وكان يهمه أن يعلم رأي شيث فيما قاله قايِن- من جهة وظيفيةله – ولكنه آثر أن يتابع مع ذي الهامة ردة فعله- من جهة طالما جهلها- ولكنه وجد الكائن مبتعدًا بوجهه عن المشهد ككل..!

دار حوله لتتسنى له رؤيته، وقال له:

- هل تهتم بما يقوله قايِن؟ بما أنه مميزٌ عندك.

قال ذو الهامة وهو يتخذ ملمحًا مغايرًا لما يُتَوَقَع منه:

- لماذا تهتم أنت أصلًا بما يقوله قايِن؟.. لماذا لا تحصر اهتمامك فيما قاله شيث عن جهله بكل شيء، مع أنه -من وجهة نظركم- أعطى نفسه، بل أعطى كل شيء... ألا يحرِّك هذا انطباعًا فيك أنت أيضًا، بأنك تخدم في مجال تجهل كل أبعاده، سواء مع السيد، أو مع هؤلاء العبيد الذي أقامك لهم؟

كان شيث يتكلم فأنصت كلاهما مؤجلين الحديث لمتابعة الرجل.

قال شيث وهو ينحني بجوار قايِن على الأرض:

- «عجبًا لهذا الموت الذي أزال جهلي بأخ لي كنت أظنه ألَدّ عدو لي ولبيتي... أنا فخور بك يا أخي..

عالجه قايِن سريعًا:

«فخورٌ؟ بي؟...

أترضى أن تزوِّج أحد أبنائك لابنة لي..

أو تعطي واحدة من بيتك لابن لي؟

أترضى أن نسكن معًا؟

أنت تقول بأنك تجهل أشياء كثيرة، ولا تعلم كل شيء، هل يدفعك هذا لقربٍ مني نحتاجه كلينا في هذه الحياة المجهولة.. فتخفف اللعنة عنِّي..! أم تزيدها نارًا برفضي أنت الآخر من عالمك.. كما رُفِضتُ من عالم أبي.. ومن عالمه هو..!؟

أشعر أنك ستتوقف عند أغنية (الفخر بإخوتي) دون أن تخطو خطوة واحدة، وتمد يدك لي..

اقترب ميكائل من شيث وكأنه يترقب إجابته أكثر من قايِن نفسه... بينما رمقه ذا الهامة بعين الامتعاض...

قال شيث وهو يُرَبِّت على يد قايِن:

- خفف عنك يا أخي، أنا لستُ بهذه القسوة، لاعليك ولا على أبنائك، فهم لاذنب لهم فيما حدث لك ولا لأخي الراحل..

قاطعه قايِن بحدة:

- «هو يعاقب كل نسلي، على خطيئتي... كنت أتمنى أن يقبلهم مثلما قبل عائلتكم على نفس المبدأ.. أليس الجميع ساقطين؟

قال شيث بحنو بالغ:

- كلمني عنك يا أخي، فأنا لا أدرك حكمته الكاملة فيما يفعل، ولم أتعود أن أضعه موضع اللوم بأي شكل كان..

فمن جهتي، أنا أقبل نسلك، وبكل الرضى منِّي أشتاق أن نعود

كعائلة واحدة ونرى أحفادنا يكبرون أمام عيوننا في وحدة، كما جمعنا الهمّ الواحد، يجمعنا الاهتمام المشترك..

قبل أن يجيب قايِن بشيء، أعلن ميكائل استياءه الشديد لتوجه شيث هذا، ولم يُخفِ ما بطنه فقال: هذا موضوع لايُبَتّ فيه هكذا برأي شيث وحده دون الرجوع للسيد الرب... أرى أن شيث تسرَّع في هذا منساقًا لعواطفه، وبتأثير من كلمات قايِن على نفسه الرقيقة.

وجدها ذو الهامة فرصة لا تتكرر، لتوجيه ضربة لميكائل فقال ساخرًا:

- «ما أعظم المحبة حين تفتح ذراعيها لمن يحبونها، وتفتح فمها في نفس الوقت بكل كلمات الإقصاء المميت لمن تَقَرَّر سابقًا عدم دخولهم في عهد الحب، هذا الضِيق الأبدي، الذي لا يتسع للآخر، برغم احتوائه لكل الكلمات والصيغ الرنانة للحب! وبرغم وجود فتيلة يتقد فيها الحب وهو يحتضر، أمام لامبالاة شديدة من المحبة، تلك التي تتجه في نفس الوقت لفتيلة انعدم فيها كل ما يسمح بالإيقاد.. لتنفخ فيها كل الحب، لا لشيء أكثر من أنها (صُنِّفت قديمًا ضمن فصائل المقبولين)!!

قال ميكائل فورًا وكأن الإجابة كانت على فمه:

- «لا تستطيع أن تُسقِط ما في ماضيك على حياتهم، فقايِن قرر

ما قرر ه بعد مبادرة محيية من السيد لما تبقى فيه من نار، وهو أجهض تلك المحاولة بإرادته.. وحينما أقصى قايين أخاه من الحياة، كان يختار لحياته بوعي، ما هو عليه الآن.. وفي المقابل، قررت العائلة الأم البقاء تحت مظلة السيد، الذي عوضهم بشيث.. هذا الذي أحميه الآن من اندفاعة يقرر فيها الاندماج مع من قرروا قتل الحياة في صبوتها...

أعلم تمامًا وعيهم الاجتماعي باحتياجهم للتواصل، ولكنني متأكد من وعيٍ راسخ لدى عائلة شيث بعلائق روحية مع العائلة السمائية، قد تعاق هذه الروابط، إذا نمت الروابط الأرضية بعائلة وضعت كل اهتمامها بالزائل والفاني.

قال ذو الهامة:

- أنا أحيا الآن بفكرٍ فردي قد لا يتماشى مع فكر إلوهيم، لكنني أتحرك ضمن قوانين وتشريعات مجتمعة، وإلا لما أبقاني.

وها أنت ترى أنني أوجد ضمن مجتمع، بالرغم من عدم انسجامي مع كل أفكاره، إلا أنه لم يفعل مثلما تريد أنت بهذا الفصل التام..

أنت لاتشعر تمامًا بهذا الفكر العائلي، فأنت مجرد قائم بأعمال، أما أنا وهم... فلنا اهتمام بالعائلة يمنحنا شيئًا من المعنى، حتى وإن عاش البعض منا في يأسه ووجعه الخاص.

هذا النمط يجمعني بآدم وعائلته على نحوما، أنت لا تعلمه... بما أنك تفكر وتعي وتسلك تبعًا لوعي لا يتطور إلا في نطاق تشريعي واحد... أترى الآن ما يجعل وعيي متفرد عن كليكما؟

نعم- إن كان هذا يريحك- أنا أقترب من فكر العائلة بآدم، وأبتعد متفردًا عن نوعيته في قايِن..!

«أنا فردٌ تمامًا، لم يصبني داء التفكير بعقلية القطيع، وبذلك أؤثر بشكل ما بأفعال في مجتمعات سمائية وأرضية على السواء.. ولم يصبني داء المُكَلَّف بمهام في عالم مجبول على اجتماعيات، لايُدرِك أبعادها في وجدان مخدوميه.. وبذلك سأتخطى في عالمهم ما تفعله أنت».

كان قايِن ينظر في عين شيث بامتنان بالغ لما أبداه من مشاعر طيبة تجاه مستقبل العائلة الواحدة.. عبَّر عن ذلك بكلمات طيبة، تبادلا تنويعاتها معًا هو وشيث بينما كانا يخطوان عائدين نحو الكهف الرئيسي لمتابعة اهتمام العائلة بالمولود الجديد الذي جاء في ظروف كهذه.

أشار ذو الهامة لهما بإصبعه وهو يقول: «مالذي يغضبك في أن يكونا واحدٌ... أليس هذا ضمن اهتمامك بالمحبة.. أم لها معنى آخر في قواميسك ميكا؟»

قال ميكائيل:

- نحن نعلم جيدًا أن كلاهما يبحث عن معنى لوجودهما معًا كشريكين على الأرض بالرغم من اختلاف الطريق والمنهج.. وهذا يسعدني، لأنني حتما سأرى من أبناء العائلتين من يسفر هذا البحث في حياته عن إيجاد للطريق كما رسمه السيد للحياة الأفضل معه...ولا أعتقد أنَّ هذا يفرحك كثيرًا.

لأنني رصدتُ- عبورًا من مهمتي لوجدانهم - ما فيهم من طاقة البحث المتجدد مع كل ولدة عن (المعنى)، و هذا سيعيدك دائمًا مع كل واحد فيهم لنقطة الصفر- ربما أكثر من مرة- ...لعلك لم تلحظ جيدًا بحثهم عن المعنى حتى في سقوطهم، هذا الذي يتخطى ما نفكر فيه، ويقفز بهم كما رأيت، فوق كل عائق أو حاجز يقف ضد وجودهم.

«أنت تبحث عن المعنى تحت أقدامك، وهم يتخطون حتى رؤوسنا في بحثهم عن المعنى الخاص بهم..

أنت تبحث عن المعنى في استعادة ما فقدته، وهم في بحثهم عن المعنى- بطاقتهم هذه- سيُعاد لهم ما فُقِد وربما يلتهمونك بما لديك، لقدرة المعنى الهائلة فيهم على ابتلاع وامتصاص كل مُدرَك بمكان... بل وإسقاط ما فيهم من معنى على الموجودات لجمعها فيهم على نحو أشمل».

ثم؛ «مالذي أتى بك الآن عند قبر آدم؟

ربما أنا جئت في مهمة، أجد في إتمامها معنى ما لوجودي، كخادم للسيد..

أما أنت، فجئت َباختيارك، لتفحص كائنًا له من الإتساع ما يجمعك إليه حتى وهو ميت... لتجلس باحثًا فيما تقودك إليه حياته بما فيهامن معنى، يتفوق بكثير عما فقدته أنت، أو تطمح في إيجاده..!».

قال ذو الهامة:

- لا أمانع أبدًا في قوتهم الهائلة، والكامنة في المعنى.. وهذا صائب، في حديثك وفي بحثهم.

ولكن ماذا عن (كيان خطاء)، زُرِع فيه الخطأ بجوار الصواب في نسيج واحد، ما إن تتم عملية إدراك لمعنى ما، حتى يمسه التشويه، وتغطيه الضبابية، بفعل النفس الخطاءة، التي تلقي بظلالها على كل مُدرَك..!

نعم يا صديقي القديم، جلستُ هنا على قبره منجمعاً لمن فيه على نحو ما مما أشرت إليه.. وفاتك أنني جئت لأحتفل بثمرة تعبي في زرع معانٍ خاصة بي في وجدانه، وهذا الموت عينه، هو أحد باكورات حصادي فيهم... ناهيك عمَّا قذفته في وعي المرأة من بذارٍ لي... لا أنت ولا غيرك يستطيع التكهن بثمار هذا التلاقح المعرفي بين رحم الوعي لديها بما تحويه من جينات متسعة كما تعلم، وبين بذاري الحاملة لخواص لا يعلم إلا الله ما تنتجه في أرض كهذه..».

قال ميكائل:

- «إذا صَحَّت مقولتك، يكون هذا الجنس - دون أن يقصد - قد أسدى لك خدمة التحقق لك، والنماء لمشروعك القديم.. ألهذا أراك مهتمًّا بهم..؟

أود أن أنبهك.. لمقولة أخرى هي أنه سواء تحقق وجودك أكثر بهم، أو ازدهر مشروعك وتُوِّجت وكُلِّلت مساعيك فيهم بالنجاح على طريقتك. فأنا أشك في أنَّ العالم الذي تحلم به يحمل سمات الوجود الأصيل، لأنه- وببساطة شديدة التعقيد- في هذه الحالة سيتكون من خلايا فردية عديمة الحياة في ذاتها، منعدمة المكوِّن الوجودي لكونها لا تتشارك ولا تنجمع بالحب ببعضها أو برأسها، وهذا يُقَوِّض فكرة الحقيقة، ويميل ناحية أن يكون عالمًا افتراضيًا أو مواز للموت... بجدارة.

وقَفَ ذو الهامة الشعراء، وقال باستحسان ساخر بعض الشيء:

لو لم تقل: «أشك» لشَكَكْتُ أُنا في أدواتك ميكا..

ومن الجيد لعقل سلاحه في نطقه مثلك أن يشُكّ، والأجود أن يثني على ذلك راعي الشكوك الواقف بين الوجود والعدم..

نعم يا ميكا القديم.. أنا أثني على طريقتك المتميزة في استخدام أدواتك على النحو الذي يخدم قضيتك، وأنا أرى في الأداة نفسها

-وليس في الاستخدام- ما يخدم قضيتي أنا أيضًا...

أنت تشك، إذ ن أنت إما تقع خارج ما تشك فيه، أو تقع فيه، أو تتوسط كلا العالمين..

وفي كل هذه الحالات، أنت متضمَّن- كأداة - بشكِّك هذا، في مصفوفة ما صنفتَّه بـ (الافتراضي)، ووسمته بعدم الأصالة كوجود.. بقولك: افتراضي في مقابلة ما تظن أنت أنه(الأصيل).

وبما أنني أرى في ظنك هذا إدعاءً ضمنيًّا بامتلاكك مقومات التواجد في هذا الأصيل- وهذا مشكوك فيه - فأنا أسألك:

بما أنك في الوجود الأصيل، تُحِب وتُحَب... إلخ

- هل تحبني ياميكا؟

لم يجبه ميكائل.. بل أشار إليه أن يقبل تأجيل الإجابة، ريثما يذهب مع شيث وقاين، ليتابع ما يُستجَد من فكر وقرار ات بشأن ما ابتدءا في طرحه عند القبر..

تحرك ذو الهامة أيضًا خلف الأخوين.. وهو يدمدم مع نفسه..!





شوكاً وحسكاً

منفيًا على الأرض بين

صياح الصيادين،

أجنحته العملاقة

تُعيقه عن المسير.

بودلير

انبعثت روائح الحياة من الكهف القديم، وعلَت الأصوات، كل الأفواه بلا استثناء أفرغت ما في البطون من كلمات وأفكار عن الموت والحياة... ليلة اليوم الثالث لدفن آدم ولمولد أخ جديد لقينان بن أنوش البكر...

التفت مجموعة من البنات حول يوبال وتوبال، ليستمعن إلى معزوفات على آلتي الناي والعود.. ولأحاديث توبال عن مخترعاته، وعن الحياة التي يحيونها في مدينة حنوك العظيمة... التفّ معظم الأطفال في هذه الدائرة ليسألوا ويطلبوا الكثير من المعرفة، وليستمعوا إلى حكايات وأقاصيص بلاد قايِن الغريبة عنهم..

في دائرة أخرى احتشد الشباب حول لامك الشاعر الفصيح، الذي أبهرهم بجماليات التعبير والإنشاء لكل ما جاش بمشاعره وطاف بحياتهم بصنوف الأحداث.. حكى لهم عن عشقه وزواجه باثنتين.. تعجبوا كثيرًا.. وتعجبت أكثر النسوة المتحركات من ورائهم ليعددن وجبة العشاء وملحقاتها..

كان متوشالح يتصدر هذا المجلس، وإن كان لم يأخذ المقام

المناسب له، فكثير من الأحاديث التي تطرقوا إليها، كان يجهلها تمامًا، فَرَضيَ بمقعد استماع، مع تعقيبات حِكَميَّة من حين لآخر حسب ما تقتضي مكانته أمام أولاده، المنبهرين بمدنية(حنوك) وطباع أولاد عمومتهم..

بعض الشابات جلسن في ركن آخر، يهمهمن بحياء وهن يتفحصن الملابس التي جاءت مع باقي الهدايا من مدينة حنوك بيد قايِن ولامك..

لفتت أنظارهن الألوان وجمالها، وتصميمات فيها جعلتهن يتغامزن كثيراً ويمنعن ضحكات من الظهور في أجواء كهذه التي تمر بها العائلة..

قالت إحداهن وهي زوجة مهللئيل:

- «تُرى ما هي هيئة نسائهن اللواتي يرتدين مثل هذه الثياب؟»..

جاءتها إجابات متنوعة بمجموعة من الشطحات الخيالية، لغياب نمط حياة القاينيات عنهن تمامًا.. ولكن وجدن في ذلك متعة خاصة، ومادة للحديث استرسلن فيها طويلًا دون مللٍ... حتى تأخرن في أحيان كثيرة عن متابعة ما في القدور من طبيخ.

التفت الجميع نحو بوابة الكهف الكبير، بعد نباح كانوب ليظهر عند الباب بعد قليل، الأخوان شيث وقايِن.. حاولت كل مجموعة

تعديل جلستها، استعدادًا لتغيير وضعية الجلوس حسبما اقتضى الموقف بدخول رأسا العائلتين..

إلا أن قايِن أشار للكل أن يبقوا في مجالسهم، بلطف جمَّ، وفعل ذلك شيث أيضًا.. ولكنه ذهب متجهماً لأمه.. وبجواره ميكائل وذو الهامة.. وهو لايراهما..

مال على أمه وطلب منها أن تأتي معهما للكهف الداخلي، بعد أن طلب من أنوش أن يأتي ببعض الشعلات ويذهب أمامه... كان قاين خلفه تمامًا.. يتحرك في كياسة الضيف، مع أنه في كهفه –تذكر ذلك ووجم قليلاً– وفضَّل أن يكون وحده معهم دون أحدٍ من أولاده.. وهذا ماجعل حواء تتوجس مرارًا جديدًا لحياتها..

جلس أربعتهم على الجزات بعد أن أعدها أنوش بحيث يرى كل منهما الثلاثة الآخرين..

حكى شيث بسرعة لأمه، مادار بينه وبين قايِن، وما اتفقا عليه معًا بخصوص فكرة تداول الارتباط بين العائلتين، بعد أن لخص لها مادار بينهما، وجعل كل منهما يفكر بذلك...

استمعت حواء باهتمام شديد، وهي تتابع مع كل جملة، تأثيرها على وجه قايِن... الذي كان هو الآخر مهتمًا أن يرى وقع الكلمات عليها.. وعلى أنوش..

انتهى شيث من عرض الموضوع، بعد أن أضاف تزكية منه للأمر، وأبدى رغبته الشخصية في أن يتم هذا الأمر، لإنهاء حالة البعد بين العائلتين..

تَجَهَّم قليلا وجه أنوش، ثم حاول عدم التسرع في إبداء رأيه... خاصة بعد أن تأكد من ملاحظة قايِن لردة فعله التلقائية...

أنقذته حواء بأن فتحت الكلام بسؤال مباشر لقايِن:

- «هل هذه فكرتك ياولدي»؟

حاول قايِن جاهدًا أن يمسك بمصدر الفكرة التي جعلتها تسأل سؤالاً كهذا، ولكنه تراجع مفضلًا أن يجاوب بتلقائية، حتى يشعروا بالاطمئنان أكثر لقلبه المفتوح أمامهم بلا دافع غير الود، قال:

- «هذا ما كنت أفكر به بصوت عالٍ مع أخي، ولكنه فضح ما اختزنته طويلًا بداخلي، وتمنيت أن يحدث».

قالت حواء متوجعة:

- «أكثر ما كنتُ أخشاه في مجيئك، هو طرح موضوع كهذا، لا قِبل لنا بتقريره الآن بعد غياب أبيك، وبعد أن استقرت كل عائلة طويلًا على ما هي عليه... أنت ولدي.. وعائلتك من دمنا، وكم حَنَّت إليكم أحشائي.. وبِتُّ هنا أبكي بلوعة، دون أن أعرف

إن كنت سألتقي بك ثانية أم لا.. وها أنت تعود لتفتح أكثر من جرح بمجيئك، وأنا ماعدت قادرة على النزيف أكثر من ذلك».

ضمَ أنوش ركبتيه أكثر إلى صدره وهو يحيطهما بيديه بعد أن شبَّك أصابعه، وهو يتأمل في التشابك هذا مطرقاً الرأس.. كان شيث يتحرك بوجهه مع كلمات أمه بين أنوش وقاين، وهو لايعرف كيف سينتهي هذا الحديث الموجع.. بينما ظل قايِن يفحص بكل مالديه من خبرة، أقوال أمه وما وراءها.

قال ذو الهامة لميكائل: ها ياميكا...هل تستطيع أن تحبني؟.. أسألك ثانية بمناسبة ما سمعناه توًا على ألسنة أولئك المقبلين على حتفهم بكل ما فيهم من مشاعر وتراث..!

قال ميكائل: أحب كل ما هو ثابت في الحق.. ويحبه؟

قال ذو الهامة: وأنا مهمتي الأولى هي فحص وغربلة كل من قال أنه ثابت في الحق ويحبه..! هل تحبني لهذا؟

قال ميكائل: الثابت في الحق، لا مبرر له في إقصاء من سقطوا بالفحص والغربلة. بعيدًا عن الحق.

عالجه ذو الهامة متسائلًا في شبه استنكار: «إقصاء.. سقطوا.!!؟» ولم ينتظر إجابة لكنه ضحك وأكمل بصوت عالٍ: ألا يمنحك هذا المزيد من فرص العمل، وأيضًا تحقيق دعوتك بمهمة كهذه، تنال

شرفها بما تتهمني به من عدم النزاهة في ارتباطي بالحق على طريقتي..!

عليك أن تحبني أكثر يا ميكا القديم، لأنني سبب من أسباب ازدهار تجارتك..!

أرني كيف تستقبل عملًا كهذا، المزمع أن يلقيه عليك الآن هؤلاء العاطفيون، إن بعلم أو بجهل... يتساوى الغباء في تناول موضوع كهذا.. لن يبقي على أحد دون سقوط جديد فيما أعده السيد للجميع.

قال شيث لأمه:

- «هل من أمر ما تعلمينه ياأمي، يمنع علينا هذا النوع من التواصل؟».

أجابته أمه دون أن تفكر: «من ناحيتي لايوجد ما يمنع، أنا عشت أتمنى ذلك من قلبي.. عليك أن تذهب بموضوع مصيري مهم كهذا، عند المنصة، وتسأله هو في ذلك»؟

قال أنوش:

- «أنا أؤيد ما قالت جدتي.. فهذا موضوع أكبر من أن نبت فيه وحدنا.. والآن».

قال له قاين:

- «بغض النظر عما يقرره هو لكم، أنا أريد أن أسمع رأيكم

واضحًا، فهذا هو ما يهمني الآن.. وأنا قادر على تحمل ماتبدونه مهما حمل لي من آلام جديدة، فقد تعودت على ذلك..»

رنة الأسى واليأس في صوته، حركت مشاعرحواء، تأوهت مرتين وقالت:

- «ياولدي لا تمزق كبدي، لم أعد أحتمل أكثر من ذلك... هو الذي أبعدك، وفصلك عنا، وهو الذي ميز أيضًا شيث من بعد هابِل، بقبوله قربانه.. وفعل ذلك مع أنوش.. وأنا علِمتُ أنه لم يفعل هذا معك.. ولا مع أحد من أولادك.. كما أكَّدتَ لي.. أتريدني الآن أن أتخطى ماحُدِّد لنا من قِبَلِه لكلينا؟»".

قال قايِن يستعطف العقل فيها قبل مشاعرها:

- «يا أمي.. لو كان لا يريد لنا التواصل.. لكان أبقى على عائلة واحدة منَّا في الحياة، وأفنى الأخرى... هل تظنين أننا حيينا كل هذا رغمًا عن إرادته، في أرضٍ أعدها لكم وحدكم؟».

قال أنوش:

- «نعم هو أبقى لكم نسلًا، ليعطي فرصة أخرى للحياة كما يريدنا أن نحياها في طاعته..».

فَهِم قايِن إلى ما يشير أنوش فقاطعه: «لماذا لاتكون هذه هي الفرصة.. لأولادنا أن يقتربوا منكم ليدركوا هذا بنفسهم دون تدخل من ماضينا».

حاول شيث أن يوفق الأمر، منتهزًا ماظنه أنه انفراجة في الحديث فقال: «ما المانع أن تبدأ يا أخي معنا في السبت القادم، التوجه للمنصة معنا، وتشاركنا التقدمة أمام ذويك، فتعلن بذلك أمام الرب وأمامهم بدء صفحة جديدة.. نستطيع بعدها أن نحظى بفرصة التواصل بعد رضاه عن وجودكم معنا».

التفت ذو الهامة لميكائل وقال: «إنها نفس الجينات ياميكا... أن تقبلني، وتحبني على طريقتك.. بعد أن تمسخ شخصيتي لتتناسب مع نظامك، الذي تجد دائمًا أنه (الصحيح) في مقابل أي نظام للحياة آخر، لم تتعب حتى في معرفته تجريبيًّا، لمجرد أنه تم تحديد ذلك بسلطة علوية، لا تناقش».

«أهذا هو مفهومك عن الثبات في الحق.. وهذا هو تبريرك لرفضي؟»

«ألهذا لا تمنحني حتى فرصة السؤال عن الحب... على طريقتي.!؟»

قال ميكائِل:

- «كيف تطلب حبًا لم تقبله، و لم تزرعه.. ولم تشارك في دعمه ليستمر؟ كيف تطلب قبولًا من عالم أنت ترفض قواعده،

ربما إن كنت محايدا قليلًا لأقررتَ بوجود الكثير من العوالم والكائنات التي اجتمعت لقوانينا، مع تنوعها وتميزها الشديد.. إنما فرق بين التنوع والتناقض».

قال ذو الهامة: لم يحالفك الحظ في هذه الضربة يا ميكا القوي، ومن ينكر دور ي في هذا التنوع والتناقض، أو يقلل من وجودي في دعم هذا الذي تسميه حبًّا وقبولًا..

فمثلًا قل لي: ما الذي يضع ختم صلاحية وصدق الحب عليهم، غيري؟

(هو) لايصدق أحدًا يقول له: «أحبك» إلا بعد أن يجتاز القائل محصتي، بل أستطيع أن أقول بأنه: «لايرضى تمامًا بحب له، دون أن يحمل هذا الحب جانبًا من البغضة لي». أرأيت.. ميكا... «لا حبًا له معصومٌ منِّي.. ولا قبول عنده لمن لا أقبله أنا أولًا في غربالي».

لذا- وهذا ما أتوقعه – أنه لا بد من إقصاء شيءٍ منِي في كل مرة يقول (هو) لهم فيها: «أحبكم ».

«ما أسوأ أن تتوقف عملية التحقق لوجودك، على إقصاء أقوى ما فيك.. وأجمل من لك»... وأنت سترى بنفسك ذلك الآن، من أتباع نظامك...اسمع..

كان قايِن يجيب شيث، بنبرة صوت ظهرت عليها أعراض الحِدَّة:

- «أهذا ماتفتقت عنه قريحتك النبوية أيها المتميز... أن تسوقنا مع قطيع نعاجك الذاهب بها إليه، لتفرض علينا علاقة معه، لم يبادر هو بإعلان أي مسار لها من ناحيتنا... ألم تفكر لحظة وأنت تقول هذا في أنك تفرض عليه عبادة هو لا يقبلها من أناس قد سبق فرفضهم...

نعم، رفضهم، وها أنت تفكر ثانية أن تعيدما حدث معي لتذبحني من جديد عند منصته، تلك التي رفضني عندما كنت أقدم له عندها ما ظننت بكل مافيَ من حب...أنه يقربني منه..! وربما أكثر مما يتطلبه مني اقتراحك الآن..!».

«أسألك وجاوبني بصدق... أتأخذ أنت أولادك بهذه الطريقة إليه... عند المنصة أسبوعيًا؟».

حاول أنوش التدخل، ولكن شيث أشار له بعدم تخطي الكبار في حديث كهذا احتدم... ثم قال لقايِن:

- «كلما فكرت فيه، بنيِّة خالصة أن أجد لأولادنا مجال لقاء.. وأنا لا أدرك كل أبعاد ذلك.. وما في قلبك من ماضٍ تجاه أحداث مشابهة لمقترحي».

قالت حواء بلهجة من يريد أن ينهي حديثًا تشتاق في قلبها أن لا ينتهي:

- «يا ويلتاه..»

من هذا المخزون الذي لن ينفذ أبدًا من قلوبنا جميعًا.. ففي كل منَّا رسخت صور للآخر، لن تنمحي، ولكل طريقته في التعامل بها مع أخيه...وما حدث الآن هو صورة مصغرة ستتكرر مع أولادكما وأحفادكما.. مهما حاولتما أن تعالجا الماضي بشتى الطرق... ستبقى الجراح بنزيفها، وسيردد أبناء قايِن نفس الأسئلة.. وأبناء شيث نفس الحلول.. في رحم عقيم لن يلد إلا الفرقة والشقاق ...

«يا ويلتاه»

رددت وهي تضرب فخذها بيدها وترفع مرثاة على آدم طويلة... صمتوا كلهم احترامًا لمشاعرها... لكن قايِن بدا كأنه بركان يوشك على الانفجار.. فيما لم تتحرك كثيرًا التعبيرات بالجديد على وجهي شيث وأنوش.

قال ذو الهامة في قلبه:

- «نفس المشهد يتكرر ثانية... إنها على الأرض.. وبين الكائنات الترابية.. وكأنه إعادة متقنة لحدث تم في أزل سحيق...كان فيه رحِمْ ما ينتحب ابنًا وُضِع تحت لعنة، لايستطيع أحد رفعها ولا التحدث عنها... أمام الكائن الوحيد الذي له سلطة القرار والتنفيذ.!».

قال هذا وهو يستعيد صورًا لم يحب أن يستدعيها الآن.. مع أنها لا تفارقه..

«أيوجد شرٌ أعظم من أن تصد ألمٌ اختارك، بألم تختاره..

وأنت موقن تمامًا بأن الخير، متواجد، إنما في عالم تقرر نفيك عنه تمامًا.. بلا أي أمل في العودة»..!

انتابه يأس شديد، ممتلئ بالرجاء الموضوع في هويته.. تلك التي أمسك بها تمامًا في هذا الخِضم.. الذي يهوي فيه دون شطآن..

مستمرة حواء في مرثاتها:

«حلمُك يا آدم..

يراود أجفان الموتى..

لم نُجِد إلا اختيار الموت..

وهل للموتى بعد هذا.. اختيار؟

كلهم أحرار

يا ويلتاه.. كلهم أحرار..

لا يُسمَح لهم إلا

بالموت.. طوعا!

آه يا آدم...

لم يبق لنا منك

إلا تركة... الاحتضار.

هذا ما يبقينا أحياء..

أشلاء..

مظلمة هي أحلام الغريب..

في وضح.. الانحدار.

يا ويلتاه

من غربة أحبتنا حتى المنتهى..

المنفي.. فيهم

يلاحق اللعنة.. حتى تُبقيه ملعوناً..

والمبارك.. منهم

يدفع بأخيه أكثر لمنفاه..

وكأن بركته لا تحيا وتزداد..

إلا ببقاء الآخر ملعونًا

قام قايِن بعد أن سمع وفهم، فحوى رسالة أمه في مرثاتها.. وبعد اجترار عقيم، لسوادٍ تمكن من قلوب الكل بلا استثناء.. الفارق كان فقط في إدخال صفة غيبية على المبدأ ليحظى بأولوية كاذبة. استُدرِج الحديث إلى شتاء قارس.. فالدفء تصنعه النساء.. إن أحبت..

شعر قايِن أنه يُطرَد من جديد

كانت المرة الأولى..

من الرحمة..

أما هذه الثانية..

وهي الأمَرّ فكانت...

من الرَحِم.

كان ميلادًا جديدًا.. لسِقط آخر.. مُشَوَّه بلا ملامح..!

رحل عن المكان دون أن يودع الجالسين..

حاملًا من الغضب والمرارة، ما يكفي لأجيال من أبناء اللعنة.

انسحب معه، ذو الهامة، كطيف حامل هو الآخر لحقيبة عذابات لا وطن لها غير الغياب الدائم في آهات البشر..

وهو يقول لميكائل:

«كسحابتين داكنتين، نتصادم هنا، نرعد ونبرق...

لكننا- مثلهم- لانعلم ما الذي تفعله تمامًا المياه التي نحملها، حين تسقط على الأرض، في وجود امرأة ترثي موتاها..

أو أم تنتحب أبناءها.. في لوعة اليأس من حياة أصابها القدر في مقتل.

أو ما أدراك بما نفعله غدا لصبي وفتاة يلهوان معًا تحت المطر، تحت قوس قزح... نصف دائرته السفلى تهبط تحت الأرض دائمًا، للإشارة عن مياه أخرى في باطنهم... سوف نعرف عن هذه أيضًا أنا وأنت منهم، في لقاءات ممطرة، نظل ننزف فيها ما بنا... لحساب هؤلاء المخيرين بين فناء وفناء، حيثُ يستقر البقاء في مكان ما لم نسمع به بعد».





إعادات

أضمكِ، حتى أعود إلى عدمي
زائرًا زائلًا
لا حياة ولا موت فيما أحسبه
طائرًا عابرًا ما وراء الطبيعة
حين أضمكِ

محمود درويش

شعورٌ غامضٌ، مزيج من الترقُب المشوب بحزن، هو حضور الربيع، لاسيّما في يوم مشمس، تحت ظلال أشجار الساكورا العملاقة، وهي في أوج عملية الإزهار، وتَدَرُّج عائلة اللون الروزيّ في رقّتِها وحيائِها من الأبيض للأحمر الباهت، كشحوب وجه مُحب أضناه العشق ولم يَبُح..

كطفل، كل ما فيه يتلفت بحثًا عن ثدي أمه. لا لجوع فيه، أكثر من احتياج لاتصال ضروري لاستكمال الحياة.

جلس يوبال تحت شجرة السومي الكرزية[1]، بشفافية زهورها حورية البياض، يتلمس بأنامله الرقيقة فتحات الناي، بعد أن أخرجه من حضنه، ومسَحَه بباطن أصابعه، كنوع من التحايا تعوَّد أن يلقيها على الناي قبل العزف.

رفع الناي إلى جانب شفتيه الأيمن، وهو يميل برأسه عليه على نفس الوقع، ضم فتحته العليا بين شفتيه بعد أن بلهما بريقه قليلًا،

1- شجرة كرز من العائلة الساكورية..تثمر في الربيع بعد موسم إزهار اسطوري رغم قِصر مدته

حتى لا يخدش نعومة حافته المطلية بزيت الزيتون البكر... وأطلق فيه نفسًا كان قد استنشقه بعمق، وملأ به رئتيه، قبل أن يعيده للهواء نغمًا بواسطة هذه القصبة.. لم يستدعِ لحنا ما عزفه قبلًا.. لكنه أعمل أصابعه ليرىَ كيف يختار الناي معه نغمة تنسجم مع الحالة.

خرجت النغمة الأولى كالضباب الذي يسقي وجه الأرض في الصباح قبل إشراقة الشمس، عمياء متفائلة لا تسفر عن شيء خاص بها، مما استدعى شهيقًا آخر، ليزفره يوبال نغمة أخرى تجاوب الأولى، لم تتكون بعد جملة مما سكن في باطنه، ربما زادت فوضى الأصوات بالنغمتين أكثر من حوله، بعد إسهامات صوتية صدرت من طيور البستان المتوزعة على الأفنان بحسب بيوتها، مما زاد الفوضى انتشارًا مع إحساس الطبيعة الأمومي في الكل، بقرب ولادة الجملة الموسيقية، مع حضور النغمة الثالثة، التي صنعت وجودًا لسابقتيها، في حضرة كمّ الآذان التي أصغت لتشارك في ظهور اللحن للوجود، من فم يوبال الناطق بالحياة وسط هذا السكون الأسطوري، وخواء البستان القديم.

هبطت الموسيقى على الأرض كقطرات الندى، كعنقود من العنب يتدلى بالحياة من أعلى في يد صبية خرجت لقطاف الحياة... وتلقتها

بعض الآذان وكشلالات اندفقت من أضعف مكان بالبحيرة العليا، قبل أن تندلق معلنة بصوت واضح: «من هنا يبدأ النهر».

توالت النغمات، وكل منها منسجمًا في وحدة الجملة، وفي سياق المعزوفة يتحد مع الباقي في بُعدٍ آخر للنغم المسترسل كموجات الضياء، لكنه جاء في شجن حزين متعاطف مع تفتح الطبيعة الممتزج ببقايا الشتاء، وزكريات عهود صيفية مضت.. وبقي الحنين لها مزروعًا في الصميم.

عزف يوبال حتى تشبع الجو بأنفاسه، التي حملت روحه وبثتها، حياةً في مسام كل نابض بالحياة من حوله، وفي خلايا كل حيوان سمع أو قبع عند قدميه منصتًا، في صورة حدثت مرة مع آدم لسلطانه، ولا تتكرر إلا في بعث كهذا كونيّ لسلطان الوجود نفسه.

تحت تأثير الانبعاث النغمي لناي يوبال، انجذبت أنامي، بنت متوشالح، لمصدر الصوت الآتي من بستان قاين الكائن بين كهوف السكن، وشطآن دجلة الممتلئة بالصفصاف المتآخي في مودة وحنو بجوار أشجار الكافور الباسقة، تلك التي حركتها الرياح فنشرت عبيرًا زكيًا أضاف لصوت الناي حضورًا آخر جعل أنامي تشتَمّ للموسيقى رائحة!

لَمَحَها يوبال بطرف عينيه، كانت ترفل في ثيابها الفضفاضة، آتية

على الجانب الآخر من بحيرة صغيرة تأتيها المياه، من جدولٍ صغيرٍ، عافَ الرُبَى و اختار أن يصُبّ ساكنًا هذا الوطاء، انعكست صورتها على صفحة المياه الصافية، فبدت ليوبال اثنتان تسيران على أقدام تلك الطافية حتى الغرق في صفحة المياه، ربما هو وحده لاحظ اتساق خطوتها مع النغم المُرسل من الناي، ضحك في سرِّه حين فكر بأنه هو الذي يُطَوع إيقاعه لخطواتها لسبب خفي تحرك فيهِ!

لاحظَتْ أنه رآها، فاختبأت خلف أول شجرة، دق قلبها بشدة حين فعلت ذلك، وضعت يدها اليمنى على قلبها، وبأنفاسها اللاهثة، سألت في نفسها: هل تريد حقًا التعرف عليه، أم تتراجع؟

توقف عن العزف، فور اختبائها، تحرك ملتفًا حول البحيرة ليقابلها تحت شجرة السرو التي توارت في جزعها، لم تتفاجأ بمجيئه، أبقت على عيناها ناظرة للأرض بينهما، وأصابعها المتشابكة عند خصرها تنم عن إيذان منها له- سري - بالمبادرة، فبادر:

«أنت.. إحدى بنات متوشالح؟»

قالت:

- نعم.. أنا أنامي.. وأضافت في خجلٍ:

- رأيتك بالأمس حين تركت الجلسة عند النار وخرجت عند باب الكهف.

تذكر ذلك، واستعرض بسرعة في ذهنه ما الذي يمكن أن يحمله جلوسه هناك لمثلها..

قال يوبال:

- أنا يوبال ابن لامك... حفيد قايِن..

أنا أيضًا رأيتُكِ هناك بجوار زوجة عمي أنوش، أخبروني أنها على وشك الولادة..

قاطعته بلطف وفرحة أفلتت من حسابات حيائها:

- ولدَت بنتًا جميلة، أجمع البعض أن وجهها يشبه كثيرًا الجدة حواء، وهي الآن في حضنها، وذهبت بها اليوم لمنصة القربان، كانت تقول وهي ذاهبة:

- «تبارك الذي أمَدَّنا بحيٍّ، وقت ذهاب الميت»

ورُحن معها بنات ونساء العائلة ليقمن بطقس دفن سُترَة الطفلة تحت الحِنَّاية.

أعاد الجملة الأخيرة باندهاش:

- «سُترة... حِنَّاية!؟... احكي لي عن هذا أنامي لو تفضلتِ»

قال هذا وأخذ بيدها -وهي استسلمت.. ربما لتكمل حديثها- ليجلسًا في مقابل بعضهما على صخرتين متجاورتين على شاطئ البحيرة.

قالت أنامي وهي تجلس:

- «عندنا عادة أن تقيم الجدة الكبيرة طقسًا لدفن السُترة -مشيمة الوليد- تحت شجرة الحناء، أحيانًا ناحية ظلال شجرة، ومرات أخرى ناحية الشمس.. لا أعلم تمامًا الغرض.

ثم تأخذ الجدة بعض الأوراق المُسِنّة، وتوزعها على كل أم، لتعطيه مغلياً، لتقوية حركة الرحم للبنات حين ينضجن»..

راح يسمعها كطفل، وأشار لها أن تكمل..

فأضافت أنامي:

- «الجدة اليوم قالت: «لكل حيٍّ بعضٌ منه يعود مندفناً في الأرض.. واليوم علمتُ، أن لكل ميت أيضًا بعضٌ يبقى مع الأحياء، بقدر ما وزعه قبل أن يرحل... وهذا البعض وذاك، هما مشيمة العائلة المستمرة».

لم يفهم كثيرًا ما قالته، كانت التحولات في ملامح وجهها هي ما أثاره وهي تقول جملتها الأخيرة.. كزهرة نَمت في وجه الشمس، وجنتاها.. استشرف فيهما إطلالة ما على حياته، عاش ينتظرها، هذه الأنثى تحمل الكثير من النغمات، أنصَت بإرهاف شديد لمعزوفتها الداخلية، وجال بخاطره أن يضع أذنه على بطنها وهي تتكلم، ضحك في سرِّه وطرد الفكرة، ثم عاد وأبقاها رهن إشارة لاحقة..

أفاق من خواطره المجنونة على سؤالها: ما هذا الذي يصدر صوتًا في يدك.. قالت هذا ومدت يدها ببطء في حياء لتلمس الناي، فتح يوبال يده تاركًا الناي فوقه، أمسكت به، رفعته على فمها مقلدة إياه وهي تبتسم، نفخت فيه.. لم يصدر شيئًا، أعادت الكَرَّة أكثر من مرة، وهو يضحك..

مد يده ليأخذ الناي- تعَمَّد أن يلمس يدها -، نظَرَت في عينيه بقوة حين فعل، ثم أدارت وجهها بسرعة ناحية عصفور ملون نزل بجوارهما.. بعد أن راح لون وجهها ناحية الحمرة... متواكبًا في نفس اللحظة مع غثاثة[1] في وجهه، وكأنما فُتِحت طريق خاصة للنفس بكمية واحدة من الدم، تتحرك بينهما لاستكشاف الشخصية.

حاول أن يعلِّمها كيف تُصدر الصوتَ من فمها باستخدام شفة الناي فقط، وتؤخر الفتحات دون ذلك، قال لها: كل الفتحات ستُخرِج نغماتها، متى استراحت النغمة الأصل على الفتحة العليا..

«تظل الفتحات لا تعطي إلا الهواء، متى أخفق الفم في إعطائها المعنى... الأصابع تحدد المسافة والصوت. » حاول أن يساعدها في إتمام ذلك.. لكنه فشل- بينما امتلأت فتحة الناي من أنفاسها، واللعاب اختلط فيها- فأطلق خياله في أنه هو الناي، وفمه الآن بين

1- درجة من درجات الشحوب..تأتي فجأة

شفتيها، تذرَّع بالتدريس ليبقي الناي وفمه على هذه الحال قليلًا.. كشفت اللعبة بحدس فيها، فتركت الناي في يده... وَجِلة بنشوة ما اعتملت في المنطقة السفلى من أحشائها.. كرعشة..!

قال يوبال: «مع أول نغمة صدرت من هذا الناي، أحسسته كائنًا ما في يدي، دبَّت فيه الحياة بنفختي، تخيلته كجدّنا آدم حين نفخ فيه المولى، فصار نايًا إلهيًا.. وخِفت لحظتها أن أفقده... أو يبتعد عني كما حدث مع أبينا.. كم أقلقني هذا الفكر مرارًا وحتى الآن».

- «أهذا سر الحزن في صوته؟» سألت أنامي.

فكَّر قليلًا ثم قال:

- «أتعلمين أنك فَسَّرتِ لي شجنًا يعتمل في قلبي مذ غادرت بلادنا لأجيء مع عشيرتي إلى هنا في وداع الجَّد.. أستشعر غربة ما في روحي، كغربة هذا الناي الذي ما انفك في نغمه ينعي اقتطاعه من أرضه ومن قصبته الأم... لكني أشعر الآن أنك إن عزفت عليه.. ربما تعوضينه الفقد، ولا أستبعد أن يستوطن هنا.. على شفتيك.. فأظل أَتعَرَّف عليَّ كما حدث الآن...

أنامي... أنامي. قالها بتنغيم شبقي وقال:

- «إسمحي لي أن أعزف لك شيئًا آخر يتفجر في داخلي الآن»...

لم ينتظر الرد.. ثبَّت عينه في عينيها، وراح يطلق أنغامًا لم يسمعها من قبل، وكأنها وإن لم تصدر بالناي صوتًا، إلا أنها بثَّت فيه من روحها، فتحول في موطنه على شفتي يوبال إلى ناي آخر، هو نفسه يسمعه لأول مرة..

وقف على قدميه وهو يعزف، قامت معه... استمر يستلهم من عينها نغمًا، تخلل ثنايا روحه، وانتشر كله كلهب يتراقص في أعماقه على وقع نبضاتها.. أخذ يُحَرِّك قدميه مع النغمات ويتمايل.. أغمض عينيه ودار عدة دورات بخفة لم يعهدها فيه من قبل.. لم يعرف الفرق حينها بين شهيقه من زفير أنفاسها.. وزفيره في الناي الصاعد إليها... أخذت النغمات تنتظم مع أنفاسهما.. رقص بكل ما فيه من فرح بالحياة.. تمايلت معه كغصن ساكوري يفُضّ ما فيه من أزهار... اتخذ الإيقاع منحىً منتظم كصعود الشمس في دورتها.. والأرض تتفتح.. كان القمر ينتظر عند الباب..!

أعجبه اللحن، حاول تكراره، فجُنّ َالناي..

البهجة، راقصة.. عند البحيرة..

والحزن يرفع مرثاته على وترٍ قايِنيٍّ مقطوع..!

تَرَك الناي...وضمَّها.. ليتعرَّف على دمائه..

وجدها منسكبةً، عارية عند البحيرة..

بثدي فردوسي، وعين باتساع الأرض..

عزَف أكثر..

نفحاتٍ تركته وطوقت عنق أنامي..

أنامي... انامي..

ترفُّ.. ترِفُّ.. تحتضنني كنغمة أمّ..

أولَدُ منها... مضيئًا كأُوَلي

وهي تتمخض بالبدء.

يتنفس العبير في المساء..

لتزهر في الصباح القوقعة..

تتسلل الحياة كنهر خفي..

يلجُ الأرض في الليل..

قررت السماء أخيرًا...

أن تُرضع هذه الصبية.

شطَرَت المياه..

لرَحمين

كل منهما..تلد توأمين..

رَقَص الجميع..

فوقف الموت بعيدًا..

تبارك الذي أرسل السيفَ..!

كلا الضفتين

في شبق أبدي محموم

للمرساة...

يموتا إذا جفَّ النهر...

وانضمَّا ثانية.

السيف يُبقي على الحياة

بأحد حدَّيه..

حين يشقُّ للنهر طريقًا..

في.. حدَّيْها.

وقف يوبال، كالناي.. عاريًا من كل شيءٍ إلا النغم..

للموسيقى.. أفعالُ كالحياة تمامًا

لامبررلها.. إلا أن:

تَتَذَوَّق.. منتشيًا.

عبث المطر بالبستان..

والطين لا يهدأ

عيناها جميلتان جمال..

قطرة الندى الأولى..

واسعتان كالهاوية..

صافيتان كالسماء.

غابا معًا تحت وطأة الانتشاء، والإنشاء...

بلاحديث.. بلا مفهوم..

الموسيقى هي اللغة الأم..

ظلت الأرض ليلتها ترقص..

حتى ولِد الصباح..

برأس منتشٍ.

وعين لا تمتلئ..!

هبطا معًا من المياه إلى اليابسة..

وكان كلاهما عريانين

وهما لا يخجلان..!

قالت له:

أنا عرفت؟...

قال لها:

إذن؛ أنا- أنتِ!

قالت:

- «نحن»..

قال:

- لا.. فـ (نحن) هي الـ (أنا) في حالة اكتمال، هي الموت الثاني، كزهرات الساكورا، لا تستمر أكثر من أسبوع، هو كل الوقت المتاح لتُعطِ ما به الآخر.

(أنا - أنت) هي الثمرة، هي الوجود، الذي يعيد دورة الحياة وبها وليد حقيقي..!

قالت: أنت راحل مع ذويك، «هل ستتركني؟»... طوق رأسها

بذراعيه، ضمها بقوة لصدره:

- «استمعي للقلب جيدًا..»

قالت له:

- «بداخلك مياه عميقة، تحتاج مني إبحارًا آخر لأسمع»..

قال:

- تعالي معي...

قالت:

- لن يوافقوا..

قال يوبال:

- هم أيضًا يقتلون؟ ويُغَرِّبون... ما الفرق إذن؟

علينا أن نختار...

قالت أنامي:

- إن اخترتُك، سقطتُ من سجلاتهم للأبد..

قال لها:

- آدم اختار حواء، وسَقط من سجلات الفردوس بإرادته.!

قالت له:

- هل كان يحبها لهذا الحد؟

قال:

- هو يعلم الحد، كل ما نعلمه أنه قرر، نعم أنامي.. الحب قرار نتخذه بكل ما فينا من ضعف وقوة، بكل ما فينا من إحساس وفهم... إلى أقصى حدود الفعل.

«قد يخلقنا الله بقرار... لكنه يطلب الحب... باختيار».

قال هذا وفكر في نفسه، ماذا لو قلت لأبي، وقتلني..؟

فكر ثانية: لماذا دائمًا هناك (أب). . يقتل أو يستحيي... يختار لنا، مع أنه هو نفسه مُجبَر على مبادئه التي يختار عليها!.. وفي ارتباطنا به نصبح جميعًا مجبرين على حتمية واحدة، هي ما تحدده المبادئ!

قالت له:

- بماذا تفكر يوبال؟

قال لها:

- أنا أحاول أن أنفي التفكير نفسه.. لأحيا معك.

«سنرحل معًا»

قالها بسرعة وحِدَّة، كأنه يهرب من شيء ما، وكان يقبض على كتفيها بشدة، كأنه يخشى أن تهرب هي منه..!

قالت له:

- هل الحب، يوجعنا أيضًا حين يختار لنا، أو يدفعنا لخيارات صعبة؟

فكَّر فيما قالته، وسخر من نفسه، فقد كان في الواقع -وبالحب- يجبرها باختيار أحادي على الهرب معه، فارضًا عليها ما حتَّمه الحب عليه... ضحك في قلبه؛ فقد صار أبًا دون أن يدري..!!

اكتشف في تلك اللحظة أنه يفكر ويتكلم، بالطريقة التي اعترض عليها مع أبيه لامك وعمه متوشالح..!

وغضب من نفسه، حين اكتشف أنه يتصرف في أنامي الآن، -حين قال لها: «سنرحل معًا»- وكأنها شيء يمتلكه، تمامًا مثل الناي الذي يحبه... أليس هذا ما كان يغضبه من أبيه قبلًا..!؟

ثار على نفسه لأجلها، ضاربًا جذع الشجرة بيده وهو يقول:

- «كل الخيارات مفتوحة أمامك، أن تقرري، وسأواجه كل الدنيا بقرارك معي.. سأقف أمام عائلتك إن أردت وأطلبك منهم، وكذا أمام أبي وعائلتي..».

قالت أنامي:

- «أنت تلقي بحبنا الصغير للهلاك، فكل واحد فيهم لا يفكر

إلا بنفسه، وبميراث العائلة، إن لم نستطع أن نختار نحن أولًا لأنفسنا، لن يختار أحد لنا».

شعر بأنهما في مرحلة أخرى من التعري، كل منهما أمام الآخر، أنه شبق المعرفة الذي أصاب بساطة الرقصة الأولى، ليدخلا معًا مجال تَعَرُّف أوسع ببعضهما، حيث يزداد النور مظهرًا الكثير من القبح الكامن في الطبيعة الأصلية، وكل تحرك في هذا النوع من النور، يُظهِر تشوهات أكثر...

هل يستطيع الحب أن يُبْقي على ما هو جميلٌ أثناء التعَرُّف؟

هل سيَبقَى الحب نفسه بعد اكتمال التعرف؟

أم كُتِب على الزهرة أن تبدأ في الذبول متى نضُجَت؟

«وكان كلاهما عريانين

وهما لا يعلمان... إلا

بالشر المحدق بهما

وبكل ما فيهما من خير» !!

الفهرس



ماهر فايز

الكاتب في سطور : موسيقي مصري، له المئات من النصوص والألحان.
مؤسس فرقة (الكاروز) ،التي قدمت حفلاتها في معظم الأماكن الثقافية بمصر.

أبحرَ بنا المؤلف بسفينةِ ساعةِ الزمن إلى القَبل الموغل في القدَم .. إلى البدء وما قبل البداية.. الزمن الذي كان مثل مزمار نُفِخَتْ فيه الروح، فكان الغائب الذي امتلأ بالحضور.

توغَل الكاتبُ في المألوف وفي المجهول .. فكانت هذه الرواية بمثابة الكُوّة التي تدخلنا في دائرة الغيب لنلج عوالم المنظور وغير المنظور.. ودلف في المحذوف، ففتح له نافذة للتعبير عن نفسه .. فتجاوز المؤلف الوصفات الجاهزة.

وبخلفيةِ الكاتب اللاهوتيةِ وعلم الكلام.. وتبحّرهِ في الفلسفة والصوفية.. والموسيقى، جعلنا نتمايلُ كما يفعل بنا الموجُ .. وأرَستْ بنا السفينة في محطة تاريخ : الإقصاء والسقوط الإرادي ورائحة تفوح منها فاكهة تلك الشجرة.. وبموتٍ حاول أن يكونَ شُجاعا، حين كان الاختيار صكا غير معفي الضرائبِ .. تلك الحفريات القديمة .. كانت نقطة انطلاق جمَّدَتِ اللحظةَ لتستمرَ.. لزمنٍ متّسَع .. بما يشبه القدر السيزيفيَّ المحتجز في الجينات .. وكان مستقره بين الفتح والمنفى.. وكانت الأرض مثل لعبة الشطرنج، تتراوح بين الأبيض والأسود، تزاحم فيها التضادُ والتناقضُ في موسيقى كونية كانت تحتاج لنغمةٍ ثالثة ليتم الانسجام.

هذه الرواية تعد رحلةً مشوقةً .. مثيرةً للأتربةِ .. كُتبَتْ بروحٍ إنسانية وجودية.. وُنسِجَتْ بلغةٍ مرهفة من حرير .. زفت فكرةً لبقة بحلةٍ جديدةٍ.. فيما يلي صَفحات تؤجج التفكير والمشاعر حتى أقصاها .. وتملأ فراغات بصوت عال.. " قايين" قد تكون مثل حصاة تُرمى لتحرك الراكد من الليل فيتسع مداه حلقة.. حلقة حتى يلمس الاستنارة حين يريد النورأن يتجلـى.رواية جديرة بأن تقرأ.

((إشراف شيراز))

الغلاف للفنان التشكيلي بولس يوسف

I.S.B.N 978-977-6560-07-9











مكتبة الكتب المسيحية





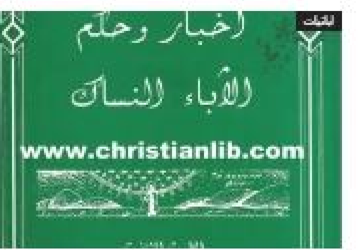




كتب روحية



كتاب الباحث عن الله – مذكرات كتبها الفيلسوف المصري المشهور نوستراداميس – د ق لبيب مشرقي pdf



كتاب من اخبار و حكم الآباء النساك – نقله عن اليونانية الآب منيف حمصي – تحميل الكتاب pdf



كتاب يوميات طبيب في ضوء الكتاب المقدس – بول تورنيية – مكتبة دار الكلمة LOGOS – تحميل pdf




كتاب لاهوت المرضى – جان كلود لارشي – تعريب روزيت جبور تعاونية النور الارثوذكسية – تحميل pdf

كتاب الايادي الضارعة – ميشال كواست ترجمة الاب فكتور الدويهي دار المشرق – تحميل الكتاب pdf



كتاب صوم يونان و الصوم الكبير – الآب متى المسكين – سلسلة عظات مختارة على اناجيل القداسات pdf